# الفصل الثالث والثلاثون

## صموئيل جونسن

## ١٧٠٩ — ٨٤

### ١ — النشأة المشوهة

### ١٧٠٩ — ٤٦

لقد كان نسيج وحده ، ومع ذلك كان نموذجياً ، فهو يختلف عن أى انجليزى فى زمانه ، ومع ذلك فهو خلاصة لجون بول جسداً وروحاً ، يبزه معاصروه فى جميع الميادين الأدبية (خلا تصنيف المعاجم) ومع ذلك فهو يسود عليهم جيلا بأسره ، ويملك عليهم دون أن يرفع شيئاً إلا صوته .

ولنلم الآن إلمامة سريعة بالضربات التى طرقته لتشكل طابعه الفريد . فلقد كان أول طفل ولد لمايكل جونسن ، الكتبى ، والطباع ، وتاجر الأدوات الكتابية فى لتشفيلد ، على ١١٨ ميلا من لندن . أما أمه فترقى أرومتها إلى قوم بهم أثارة من نبالة . وكانت تبلغ السابعة والثلاثين حين تزوجت فى ١٧٠٦ ما يكمل البالغ من العمر خمسين عاما .

وكان صموئيل غلاماً عليلا ، بلغ من ضعفه حين ولد أنه عمد للتو مخافة أن يكون مأواه الأبدى — ان مات بغير عماد — فى الأعراف ، مدخل الجحيم الكئيب . وسرعان ما بدت عليه إمارات « داء الملك » (الخنازيرى) . فلما أن بلغ ثلاثين شهراً أخذته أمه رغم أنها حامل فى ولدها الثانى فى الرحلة الطويلة إلى لندن لكى « تلمسه الملكة ليبرأ من الخنازيرى » وصنعت الملكة قصاراها ولكن المرض كلف جونسن الاكتفاء بعين واحده وأذن واحدة ، وشارك غيره من البلايا فى تشويه وجهه[1] . على أنه اشتد رغم ذلك عضلا

وهيكلا ، ودعمت قوته كما دعمت ضخامته تلك النزعة الاستبدادية التى أحالت جمهورية الأدب إلى ملكية كما شكا جولدسمث . وقد ذهب صموئيل إلى أنه ورث عن أبيه « ذلك المزاج السوداوى الكريه الذى جعلنى مجنوناً طوال حياتى ، أو على الأقل غير متزن »[٢] . ولعل لوهمه المرضى أساساً دينياً لا بدنياً فقط ، كما كان الشأن مع كوبر ، فلقد كانت أم جونسن كلفنية راسخة تؤمن بأن الهلاك الأبدى قاب قوسين منها . وقد قاسى صموئيل من رهبة الجحيم إلى يوم مماته .

وعن أبيه أخذ مبادىء المحافظين ، والميول الاستيوارتية ، والشغف بالكتب . فكان يقرأ بعضهم فى مكتبة أبيه ، وقد قال لبوزويل فيما بعد ، «كنت فى الثامنة عشرة أعرف تقريباً قدر ما أعرفه الآن »[٣] . وبعد أن نال حظاً من التعليم الأولى انتقل إلى مدرسة لتشفيلد الثانوية ، وكان فى ناظرها « من الضراوة ما جعل الآباء الذين تعلموا على يديه يأبون إرسال أبنائهم إلى مدرسته »[٤] . على أنه حين سئل فى كبره كيف أتيح له أن يتمكن من اللاتينية على هذا النحو أجاب « كان معلمى يحسن ضربى بالسوط . ولولا ذلك يا سيدى لما أفلحت فى شىء»[٥] . وقد أعرب فى شيخوخته عن أسفه لإهمال العصا . « فى مدارسنا الكبرى اليوم يجلدون التلاميذ أقل مما كانوا يجلدونهم فى الماضى ، ولكن ما يتعلمونه فيها أقل ، فهم يخسرون فى طرف ما حصلوه فى الطرف الآخر »[٦] .

وفى ١٧٢٨ أتيح لأبويه من الموارد ما يسر لهما إرساله إلى اكسفورد ، وهناك راح يلتهم الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ويزعج معلميه بعصيانه وتمرده . وفى ديسمبر ١٧٢٩ عجل بالعودة إلى لتشفيلد ، ربما لنفاد مال أبويه ، أو لأن وهمه المرضى قد قارب الجنون قربا أحوجه إلى العلاج الطبى . وعولج فى برمنجهام ؛ ثم ساعد أباه فى متجره بدلا من العودة إلى أكسفورد . فلما أن مات الأب ( ديسمبر ١٧٣١ ) اشتغل صموئيل مدرساً مساعداً فى مدرسة بماركيت بوزوبرث . وسرعان ما مل هذا العمل بعد قليل ، فانتقل إلى برمنجهام ، وسكن مع كتبى ، وكسب خمسة جنيهات بترجمة كتاب

عن الحبشة ، وكان هذا مرجعاً بعيداً لقصته « راسيلاس » . وفى ١٧٣٤ ققفل إلى لتشفيلد حيث كانت أمه وأخوه يواصلان العمل فى المتجر . وفى ٩ يوليو ١٧٣٥ ، قبل أن يتم السادسة والعشرين بشهرين ، تزوج إلزابث بورتر ، وكانت أرملة فى الثامنة والأربعين لها ثلاثة أطفال وتملك ٧٠٠ جنيه . وبمالها هذا افتتح مدرسة داخلية فى إديال القريبة منه . وكان من تلاميذه ديفد جاريك ، أحد صبية لتشفيلد ، ولكن لم يكن هناك ما يكفى لاستمالته إلى مهنة التعليم ، وكان التأليف يختمر فى باطنه . فكتب مسرحية سماها « أيرينى » ، وبعث بكلمة لأدورد كيف محرر « مجلة الجنتلمان » يشرح كيف يمكن تحسين تلك المجلة . وفى ٢ مارس ١٧٣٧ انطلق إلى لندن مع ديفد جاريك وجواد واحد ، ليبيع مأساته ويشق لنفسه طريقاً فى العالم القاسى .

على أن مظهره كان يعاكسه . كان نحيلا طويلا ، ولكن كان له هيكل ناتىء العظام جعله كتلة من الزوايا . وكان وجهه مبقعاً بندوب الداء الخنازيرى تهيجه مراراً انقباضة تشنجيه ، وكان جسمه عرضة لانتفاضات مزعجة ، وحديثه تؤكده حركات وإيماءات غريبة . وقد نصحه كتبى طلب عنده عملا بأن « يحصل على أنشوطة حمال ويحمل الحقائب »(٧) . والظاهر أنه تلقى بعض التشجيع من كيف ، لأنه فى يوليو عاد إلى لتشفيلد وأتى بزوجته إلى لندن .

ولم يكن خلواً من المكر . فحين هوجم كيف فى الصحف نظم جونسن قصيدة فى الدفاع عنه وأرسلها إليه ، فنشرها كيف ، وكلفه بمهام أدبية ، وانضم إلى ددسلى فى نشر قصيدة جونسن « لندن » ( مايو ١٧٣٨ ) التى نقداه عشرة جنيهات ثمناً لها . وقد قلدت القصيدة فى غير مواربه « الهجائية الثالثة » لجوفنال ، ومن ثم أكدت الجوانب المؤسفة لمدينة لندن التى سرعان ما تعلم الكاتب أن يحبها ، كذلك كانت هجوما على حكومة روبرت ولبول ، الذى وصفه جونسن فيما بعد بأنه « خير وزير عرفته البلاد »(٨) . وكانت القصيدة من بعض نواحيها هجوماً غاضباً لشاب ظل غير واثق من قوت غده بعد أن قضى عاماً فى لندن . ومن هنا بيته المشهور « ان الكفاية تصعد ببطء لأن الفقر يوهنها »(٩) .

فى أيام الكفاح تلك جرب جونسن قلمه فى كل لون من ألوان الأدب. كتب « سير العظماء » ( ١٧٤٠ ) ، ودبج مقالات شتى لمجلة الجنتلمان ، منها تقارير وهمية عن المناقشات البرلمانية . وكان نشر المناقشات البرلمانية محظوراً حتى ذلك التاريخ ، فوقع كيف على حيلة ادعى بها أن مجلته إنما تسجل المناقشات فى « مجلس شيوخ مجنا لليبوتيا » . وفى ١٧٤١ اضطلع جونسن بهذه المهمة . ومن المعلومات العامة التى اجتمعت له عن سير النقاش فى البرلمان ألف خطباً نسبها إلى شخصيات كانت أسماؤهم تصحيفاً لأسماء كبار المجادلين فى مجلس العموم[١٠] . وكان فى هذه التقارير من مظهر الصدق ما أوقع فى روع الكثير من القراء أنها تقارير حرفية ، واضطر جونسن إلى أن ينبه سموليت ( الذى كان يكتب تاريخاً لانجلتره ) إلى عدم الاعتماد عليها كتقارير حقيقية . وذات مرة عاق جونسن عن اطراء سمعه لخطبة نسبها إلى شاتام بقوله « هذه الخطبة كتبتها فى عليه بأكستر ستريت»[١١] . فلما أثنى بعضهم على حياد تقاريره اعترف قائلا « لقد أحسنت إنقاذ المظاهر إلى حد معقول ، ولكن حرصت على ألا يكون كلاب الهويجز هم الفائزين»[١٢] .

ترى كم كان أجره على عمله هذا ؟ لقد وصف كيف مرة بأنه « صراف بخيل » ، ولكنه صرح غير مرة بحبه لذكراه . وقد دفع له كيف تسعة وأربعين جنيهاً بين ٢ أغسطس ١٧٣٨ و ٢١ ابريل ١٧٣٩ ، وفى ١٧٤٤ قدر جونسن أن مبلغ خمسين جنيهاً فى العام « يفيض ولا ريب عن حاجات الحياة »[١٣] . غير أن الناس جروا على القول بأن جونسن كان يعيش فى تلك السنين فى فقر مدقع فى لندن . وقد اعتقد بوزويل أن « جونسن وسفدج بلغ بهما الأملاق أحياناً مبلغاً أعجزهما عن دفع إيجار مسكن . فكانا يجوبان الشوارع ليالى بأكملها »[١٤] . وزعم ماكولى أن شهور الضنك تلك عودت جونسن قذارة الهندام و « شدة الشره » للطعام[١٥] .

وقد ادعى رتشرد سفيدج أنه ابن لأحد الأيرلات ، دون أن تقنع دعواه الناس ولكنه كان قد بات متبطلا لا يصلح لشىء حين لقيه جونسن فى ١٧٣٧ . وقد جابا الشوارع لأنهما أحبا الحانات أكثر مما أحبا مسكنيهما . ويذكر بوزويل « بكل ما يمكن من احترام ولياقة . » .

أن سلوك جونسن بعد مجيئه إلى لندن ، ومعاشرته لسفدج وغيره ، لم يكن فيهما شديد الالتزام بالفضيلة ، فى إحدى النواحى ، كما كان وهو أصغر سناً . وقد عرف عنه أن ميوله الغرامية كانت قوية عاتية إلى حد غير عادى . واعترف لكثير من أصدقائه أنه اعتاد أن يأخذ نساء المدينة إلى الحانات ، ويستمع إليهن وهن يروين سيرتهن . وباختصار يجب ألا نخفى أن جونسن ، كغيره من الرجال الطيبين الأتقياء الكثيرين ( أكان بوزويل ذاكراً بنفسه وهو يقول هذا ؟ ) . . . لم يكن خلواً من النوازع التى كانت على الدوام « تشن حرباً على ناموس عقله » — وأنه فى معاركه معها كان يهزم أحياناً »[١٦] .

وقد رحل سفدج عن لندن فى يوليو ١٧٣٩ ومات فى سجن للمدنيين عام ١٧٤٣ . وبعد ذلك بعام أصدر جونسن « سيرة رتشرد سفدج » ، وهو كتاب وصفه هنرى فيلدنج بأنه « قطعة من الأدب لا تقل أنصافاً وإجادة عن أى قطعة قرأتها من نوعها »[١٧] . وكانت هذه السيرة إرهاصاً بكتاب جونسن « سير الشعراء » ( وقد ضمنت فيه ) . ونشرت السيرة غفلا من اسم الكاتب ، ولكن سرعان ما اكتشف أدباء لندن أن جونسن كاتبها . وبدأ الكتبيون يرون فيه الرجل المؤهل لتصنيف قاموس للغة الانجليزية .

## ٢ — القاموس : ١٧٤٦ — ٥٥

كتب هيوم قبل ذلك فى ١٧٤١ يقول « إنا لا نملك قاموساً للغتنا ، ولا نكاد نملك أجرومية متوسطة الجودة »[١٨] . وكان فى هذا مخطئاً ، لأن نثانائيل بيلى كان قد أصدر فى ١٧٢١ « قاموساً انجليزياً ايتمولوجيا جامعاً » ، وكان لهذا القاموس أسلاف قريبة الشبه بالمعاجم . ويبدو أن اقتراح تصنيف قاموس جديد جاء من روبرت ددسلى فى حضور جونسن ، الذى قال أعتقد أننى لن أضطلع به »[١٩] . ولكن حين انضم كتبيون آخرون إلى ددسلى وعرضوا ١,٥٧٥ جنيهاً على جونسن ان التزم بالمهمة ، وقع العقد فى ١٨ يونيو ١٧٤٦ .

وبعد إطالة الفكر وضع فى أربع وثلاثين صحيفة « خطة لقاموس للغة

الانجليزية » وطبعها . ثم أرسلها إلى عدة أشخاص منهم اللورد تشسترفيلد ، الذى كان يومها وزيراً للدولة ، ومعها ثناء مشرب بالأمل على نبوغ هذا الأيرل فى الانجليزية وغيرها من ضروب المعرفة . ودعاه تشسترفيلد للحضور ، فذهب جونسن ، ونفحه الأيرل بعشرة جنيهات وكلمة تشجيع . ثم قصده جونسن ثانية بعد حين ، فأبقاه منتظراً ساعة ، غادر بعدها المكان غاضباً ، وطلق فكرة إهداء قاموسه إلى تشسترفيلد .

وشرع فى مهمته على هون ، ثم ازداد همة ونشاطاً ، لأنه كان ينقد أجره منجماً . وحين وصل إلى كلمة Lexicographer ( المعجمى ) عرفها بهذه العبارة «كاتب للقواميس . كادح لا يؤذى أحداً» وكان الرجاء يحدوه بإنجاز العمل فى ثلاث سنوات . فاستغرق منه تسعا . وفى ١٧٤٩ انتقل إلى جف سكوير ، المقابل لفليت‌ستريت ، واستأجر خمسة سكرتيرين أو ستة دفع من جيبه أجرهم ، وأقامهم بالعمل فى غرفة بالطابق الثالث . وقرأ أعلام كتاب القرن الواقع بين عامى ١٥٥٨ و ١٦٦٠ — ابتداء من ارتقاء إليزابث الأولى العرش إلى ارتقاء تشارلز الثانى ، فقد كان يعتقد أن اللغة الانجليزية بلغت فى تلك الحقبة أبعد شأوها ، وقصد أن يتخذ لغة الحديث الأليزابيثى — الاستيوارتى معياراً يرسى عليه قواعد الاستعمال الجيد للغة . وكان يضع خطاً تحت كل جملة يريد اقتباسها لإيضاح استعمال كلمة ما ، ودون فى الهامش الحرف الأول من الكلمة المراد تعريفها . وأصدر تعلياته لمعاونيه بأن ينسخوا كل جملة مخططة على جزازة منفصلة ، ويدخلوا هذه فى مكانها الأبجدى من قاموس بيلى ، الذى استعان به منطلقاً ومرشداً .

وخلال هذه السنين التسع اقتنص أجازات كثيرة من تعاريف قاموسه ، وكان أحياناً يستسهل نظم قصيدة عن تعريف لفظ . ففى ٩ يناير ١٧٤٩ نشر قصيدة من اثنتى عشرة صفحة عنوانها « بطلان الرغبات البشرية » ، وكانت كسابقتها « لندن » التى نظمها قبل عشر سنين تقليداً لجوفينال من حيث الشكل ، ولكنها عبرت بقوة هى قوته هو دون غيره . وقد ظل ساخطاً على فقره وعلى إهمال تشسترفيلد له :

فانظر أى شرور تعدو على حياة الأديب

الكدح ، والحسد ، والفقر ، والراعى المتفضل ، والسجن .
ثم ما أشد بطلان انتصارات المحارب !
تأمل تشارلز الثانى عشر ملك السويد :
ترك الاسم ، الذى كان يصفر لذكره وجه الدنيا ،
ليدل الناس على عبرة أو ليجمل قصة [٢٠] .

إذن فما أغبى الأمل فى طول العمر بينما نرى بطلان الشيخوخة وخديعتها وآلامها : كالعقل يشرد فى حكايات مكررة ، والحظ يهتز مع أحداث كل يوم ، والأبناء يتآمرون على الميراث ويتحسرون على تباطؤ الموت ، بينما « تغير أوصاب لا حصر لها على المفاصل ، وتضرب نطاقاً على الحياة ، وتضيق الخناق على هذا الحصار الرهيب »[٢١] . وما من سبيل للفرار من الآمال الباطلة والفناء المحقق إلا سبيل واحدة : هى الصلاة ، والإيمان بإله عنده الخلاص والثواب .

ومع ذلك كان لهذا المتشائم لحظات استمتع فيها بالسعادة . ففى ٦ فبراير ١٧٤٩ أخرج جاريك مسرحيته « أيرينى » . وكان حدثاً خطيراً فى نظر جونسن ، فاغتسل ، وشد على كرشه بصدرية قرمزية موشاة بمخرمات ذهبية ، وأزدهى بقبعة لها ذات الحلية ، وراح يرقب صديقه وهو يلعب دور محمد الثانى أمام السيدة كيبر التى لعبت دور أيرينى ، واستمر عرض المأساة تسع ليال ، وأتت لجونسن بحصيلة قدرها مائتا جنيه ، ولم تبعث بعدها قط ، ولكن ددسلى نقده مائة أخرى لقاء حق التأليف . وحقق الآن ( ١٧٤٩ ) من الشهرة والثراء ما أتاح له تأسيس ناد ، ليس هو « النادى » ( Club ) « الذى جاء بعد خمسة عشر عاماً ، بل « نادى آيفى لين» ، وهو اسم منقول عن الشارع الذى اعتاد فيه جونسن أن يلتقى فى حانة كنجز هد بهوكنز وسبعة أصحاب آخرين كل مساء ثلاثاء يأكلون البفتيك ويتبادلون الآراء المتحيزة . يقول جونسن « إلى هناك كنت أختلف دائماً »[٢٢] .

وكان فى كل ثلاثاء وجمعة ، من ٢١ مارس ١٧٥٠ إلى ١٤ مارس ١٧٥٢ ، يكتب مقالا صغيراً ينشره كيف تحت عنوان « الجوال » ( رامبلر ) ،

ويتقاضى على ذلك أربعة جنيهات فى الأسبوع . وكان المبيع من المقالات يقل عن خمسمائة نسخة ، وخسر كيف فى هذه المغامرة ، ولكنها حين جمعت فى كتاب طبع منه اثنا عشرة طبعة قبل وفاة جونسن . فهل نعترف بأننا لم نجد طرافة إلا فى عددين هما ١٧٠ و ١٧١[٢٣] ، وفيهما جعل جونسن مومساً تدل الناس على عبرة وتجمل قصة ؟ وقد شكا النقاد من إسراف الأسلوب والألفاظ فى الطول على الطريقة اللاتينية ، ولكن بوزويل ، فيما بين أوزاره ، وجد عزاء وراحة فى حض جونسن قراءه على التقوى[٢٤] .

وكان جونسن يعانى توتراً غير عادى فى تلك السنوات ، لأن ذهنه أرهقته التعاريف ، ومعنويته هبط بها تدهور حال زوجته . ذلك أن « تتى » راحت تهدىء آلام الشيخوخة والوحدة بالخمر والأفيون . وكثيراً ماكانت تقصى جونسن عن فراشها )[٢٥] . ونادراً ماكان يصطحبها حين يتناول طعامه خارج الدار . يقول الدكتور تيلر ، وكان يعرفهما معرفة وثيقة ، إنها « كانت البلاء الذى نكبت به حياة جونسن ، وكانت ثملة إلى درجة بشعة ، حقيرة من جميع الوجوه ، وكان جونسن يشكو مراراً . . . من وضعه مع زوجة كهذه »[٢٦] ، غير أن موتها ( ٢٨ مارس ١٧٥٢ ) أنساه عيوبها ، فبات مفتوناً بها بعد موتها فتنة أضحكت أصحابه . وأطرى فضائلها ، ورثى لوحدته ، ورجا أن تتشفع له عند المسيح[٢٧] . يقول بوزويل وهو يستحضر تلك الحقبة « لقد أخبرنى أنه كان عادة يخرج من داره فى الرابعة مساء ، وقل أن يعود إلا فى الثانية صباحاً . . . وكان منتجعه هو حانة ميتر بفليت ستريت ، حيث كان يحب أن يطيل السهر »[٢٨] .

على أن جونسن كان يرهب الوحدة . ومن ثم فقد أتى بآنا وليمز إلى بيته فى جف سكوير ( ١٧٥٢ ) ، وكانت شاعرة وازية تكاد تفقد بصرها . ثم فشلت جراحة أجريت لعلاجها ، فكف بصرها تماماً . وقد مكثت مع جونسن حتى وفاتها ( ١٧٨٣ ) باستثناء فترات قصيرة تخللت هذه الفترة ، تشرف على إدارة البيت والمطبخ ، وتقطع شرائح الشواء — وتحكم على امتلاء الأقداح دون مرشد غير أصابعها . أما احتياجات جونسن الأخص فقد اتخذ لقضائها ( ١٧٥٣ ) خادماً زنجياً يدعى فرانك باربر ، ظل يلازمه

تسعة وعشرين عاما . وقد أدخله جونسن المدرسة ، وجهد ليجعلة يتعلم اللاتينية واليونانية ، وخلف له تركة لا يستهان بها . واستكمالا لمقومات هذه المنشأة دعا جونسن طبيباً مهجوراً منبوذاً يدعى روبرت لفيت ليسكن معه ( ١٧٦٠ ) . وقد ألف ثلاثتهم بيتاً كثير الشجار ، ولكن جونسن كان شاكراً لصحبتهم .

وفى يناير ١٧٥٥ دفع بآخر فروخ « القاموس » إلى الطابع ، الذى حمد الله على قرب خلاصه من هذا العمل وهذا الرجل . ونمى إلى تشسترفيلد نبأ القاموس الوشيك الظهور ، وكان يأمل أن يصدره صاحبه بعبارة إهداء له . وحاول أن يكفر عن قصر نظره فى الماضى بمقالين كتبهما لإحدى المجلات يرحب فيهما بالأثر الأدبى المرتقب ، ويطرى جونسن أديباً يسره أن يرتضيه حكماً لا يرد فى استعمال الانجليزية الفصحى . غير أن المؤلف المعتز بكرامته أرسل إلى الأيرل ( ٧ فبراير ١٧٥٥ ) رسالة وصفها كارليل بأنها « نفخة بوق الحشر الذائعة الصيت التى أعلنت أن نظام رعاية الأدب يجب ألا تقوم له قائمة » :

سيدى اللورد :

أبلغنى صاحب مجلة « ورلد » مؤخراً أن فخامتكم كاتب المقالين اللذين زكيا قاموسى لجمهور القراء . . . وإن تنويهكم بفضلى لشرف لا أدرى كيف أستقبله أو بأى عبارات أعرب عن اعترافى به لقلة تعودى على أفضال العظماء .

سيدى اللورد ، لقد انقضت اليوم سبع سنوات منذ انتظرت فى حجرتك الخارجية أو رددت عن بابك ، ورحت خلال هذه الحقبة أدفع عملى خلال مصاعب من العبث أن أشكو منها ، حتى بلغت به آخر الأمر حافة النشر ، دون أن تسدى إلى يد واحدة ، أو كلمة تشجيع واحدة ، أو ابتسامة عطف واحدة . ومثل هذه المعاملة لم أتوقعها ، لأنه لم يكن لى راع بتاتاً قبل ذلك .

أليس راعى الأدب يا سيدى اللورد ذلك الذى ينظر فى غير اكتراث إلى رجل يصارع من أجل الحياة فى الماء ، حتى إذا بلغ اليابسة أثقله بمساعدته ؟

إن الاهتمام الذى طاب لك أن تبديه نحو جهودى كان كريماً لو أنه جاء مبكراً ، ولكنه تأخر حتى أمسيت عديم الاكتراث له ، عاجزاً عن الاستمتاع به ، وحتى بت وحيداً لا أستطيع اشراك غيرى فيه ، معروفاً لا حاجة لى إليه . وأرجو ألا يعد من القسوة البالغة السخرية ألا أعترف بأفضال لم أتلق منها نفعاً ، أو أن أكره أن يعدنى الجمهور مديناً لراع بما مكنتنى العناية الإلهية من أن أؤديه لنفسى .

وإننى إذ مضيت بعملى هذا الشوط بقدر ضئيل جداً من الدين لأى راع للأدب ، فلن يفت فى عضدى أن أنهى العمل بقدر أضأل إن كان هذا القدر متاحاً ، ذلك أننى أفقت منذ أمد بعيد من حلم الأمل الذى كنت يوماً ما أعتز به فى اغتباط شديد .

وإننى يا سيدى اللورد

خادمكم المتواضع المطيع

صموئيل جونسن (٢٩) .

أما تعليق تشسترفيلد الوحيد على الرسالة فهو أنها « كتبت كتابة جيدة جداً » . وهى فى الحق آية من آيات نثر القرن الثامن عشر ، بريئة تماماً من المشتقات اللاتينية التى كانت أحياناً تعوق أسلوب جونسن وتثقله . ولا بد أن كاتبها كان عميق الإحساس بها والتفكير فيها ، لأنه تلاها على مسامع بوزويل من الذاكرة بعد ست وعشرين سنة(٣٠) ، ولم تنشر الرسالة إلا بعد موت جونسن . ولعل غيظه شوه حكمه على « رسائل تشسترفيلد لولده » بأنها — « تعلم أخلاقيات بغى ، وعادات معلم رقص »(٣١) .

وذهب جونسن إلى أكسفورد فى مطالع ١٧٥٥ ، من جهة ليرجع إلى المكتبات ، ومن جهة أخرى ليقترح على صديقه توماس وارتن أنه مما يعين على رواج القاموس أن يستطيع مؤلفه إضافة درجة جامعية إلى اسمه . ودبر وارتن الأمر ، وفى مارس خلعت على جونسن درجة أستاذ آداب فخرية . وهكذا صدر القاموس آخر الأمر ، فى مجلدين من القطع الكبيرة بلغا قرابة ٢,٣٠٠ صفحة ، وحدد له ثمناً أربعة جنيهات وعشرة بنسات . وفى ختام المقدمة أعلن جونسن أن .

« القاموس الانجليزى ألف بمساعدة ضئيلة من المثقفين ، ودون أى رعاية من العظماء ، ولم يؤلف فى هدوء العزلة الناعم ، ولا تحت الظلال الجامعية الوارفه ، بل فى غمار العناء والحيرة ، وفى جو المرض والحزن ، ولعله مما يكبح انتصار أصحاب النقد الخبيث أن يلاحظوا أنه إذا كانت لغتنا الانجليزية لم تحظ هنا بعرض كامل ، فعذرى أننى إنما فشلت فى محاولة لم تنجزها كمدرات البشر إلى الآن . . . لقد أطلت عملى حتى طوى القبر أكثر من كنت أبغى إدخال السرور إلى أفئدتهم ، وبات النجاح والإخفاق أصواتاً فارغة ، ومن ثم فإنى أطلقه فى هدوء لا يبالى ، إذ ليس هناك ما أخشاه أو أرجوه من اللوم أو المديح » .

وما كان فى الإمكان أن يتوقع من النقاد أن يدركوا أن قاموس جونسن عين قمة ، وخطاً فاصلا فى أدب القرن الثامن عشر الإنجليزى ، كما عينت موسوعة ديدرود الأمبير ( ١٧٥١ — ٧٢ ) قمة ونقطة تحول فى أدب فرنسا . ولقد كان هناك ضحك كثير على عيوب عارضة فى عمل جونسن . فبين المواد التى بلغت أربعين ألفاً ألفاظ غريبة مثل gentilitious و sygilates ( وهما لفظان يحتفظ بهما قاموس وبستر باحترام ) . وحوى القاموس تعريفات غاضبة كتعريف كلمة « معاش » pension « مكافأة تمنح لإنسان بدون مقابل . والكلمة فى انجلتره تفهم عموماً على أنها تعنى راتباً يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » . أو كلمة excise ( ضريبة الإنتاج ) « ضريبة بغيضة على السلع » . ثم هناك نكت شخصية كما فى تعريف كلمة oats (الشوفان) « غلة تطعم بها الخيل فى انجلتره عادة ، ولكنها فى اسكتلنده يقتات بها الآدميون » — وكان هذا صحيحاً لا غبار عليه . وسأل بوزويل جونسن ان كانت المدنية civilization كلمة : فقال لا ، ولكن civility ( الكياسة ) [٣٢] . كلمة . . وكثير من « اتمولوجيات » جونسن ( تتبع أصول الكلمات وتاريخها ) يرفض اليوم ، فقد كان يعرف الكثير من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، ولكنه كان ضئيل العلم باللغات الحديثة ، وقد اعترف صراحة أن « الاتمولوجيا » نقطة الضعف فيه[٣٣] . وقد عرف كلمة Pastern بأنها « ركبة الحصان » (وصحتها جزء من قدم الحصان) . وحين سألته سيدة كيف

حدث أنه وقع فى خطأ كهذا ؟ أجاب « الجهل يا سيدتى ، الجهل المطبق »[٣٤] . ولم يكن فى استطاعته تجنب العثرات فى قاموس بهذه الضخامة كل صفحة فيه تفتح أبواباً كثيرة للزلل .

ولقد لقى إنجاز جونسن العظيم التقدير خارج وطنه . فأهدته الأكاديمية الفرنسية نسخة من قاموسها ، وأهدته أكاديمية ديللاكروسكا الفلورنسية قاموسها[٣٥] . وراج القاموس رواجاً أرضى الكتبيين ، فنقدوا جونسن أجر تجهيز طبعة مختصرة . وظل القاموس المطول قياسياً حتى حل محله « نوح ويستر » فى ١٨٢٨ . وقد وضع القاموس جونسن فى قمة المؤلفين الإنجليز فى عصره ؛ والواقع أن جونسن اكتسب سلطان الحكم الذى لا يرد له حكم فى الأدب الإنجليزى ، إذا استثنينا أدباء أرستقراطيين مثل هوراس ولبول . وهكذا بدأ حكم « خان الأدب الأكبر » *

## ٣ — الحلقة المسحورة

على أنه لم يكن فوق الاعتقال بسبب الدين . ذلك أنه أنفق أجره الذى تقاضاه عن القاموس بالسرعة التى أتاه بها . ففى ١٦ مارس ١٧٥٦ كتب إلى صموئيل رتشردسن يقول : « سيدى ، انى مضطر إلى طلب معونتك ، فأنا الآن مقبوض على لأننى مدين بخمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً . . . فإذا تفضلت بموافاتى بهذا المبلغ رددته لك شاكراً ، مضيفاً إياه إلى كل أفضالك السابقة »[٣٦] . وأرسل إليه رتشردسن ستة جنيهات . وكان يكسب قوته فى تلك الحقبة بتحرير المقالات للمجلات ، وبتأليف المواعظ بجنيهين للعظة لرجال الدين الذين لم يوهبوا القدرة الكبيرة على البيان ، وبجمع الاكتتابات مقدماً عن طبعة من مؤلفات شكسبير وعد بتحقيقها ، وبكتابه مقال أسبوعى لليونفرسل كرونكل ( ١٥ ابريل ١٧٥٨ إلى ٥ ابريل ١٧٦٠ ) باسم « العاطل » وكانت هذه المقالات أخف روحاً من « الرمبلر » ، ولكنها مع ذلك أشد جداً وثقلا مما يحتمله القراء الذين يتحرون الجرى فى القراءة . وقد ندد مقال

---

(*) Cham, The Great Cham معناها خان ويبدو أن العبارة استعملها سمولت أولا ، فى رسالة إلى ويلكس مؤرخة ١٦ مارس ١٧٥٩ .

منها بتشريح الحيوان الحى ، وشهر آخر بسجون المدينين . ورثى المقال رقم ٥ لانفصال الجند عن زوجاتهم ؛ واقترح تأليف فرق من « الفارسات الخفاف » يقمن بأعمال التموين والتمريض ، ويرحن أزواجهن فيما عدا هذا .

وفى يناير ١٧٥٩ بلغه أن أمه ذات التسعين ، التى لم يرها منذ اثنين وعشرين عاما ، مشرفة على الموت . فاقترض نقوداً من طابع ، وبعث إليها بستة جنيهات فى رسالة رقيقة . ووافاها الأجل فى ٢٣ يناير . ولكى يغطى نفقات جنازتها وديونها كتب فى أمسيات أسبوع واحد ( فى رواية رينولدز ) « تاريخ راسيلاس أمير الحبشة » وأرسله إلى الطابع جزءاً فجزءاً ، ونقد عنه مائة جنيه . فلما نشر فى ابريل رحب به النقاد أثراً من عيون الأدب ، وقارنوا بينه وبين قصة فولتير « كانديد » التى صدرت فى الوقت نفسه تقريباً وعالجت المشكلة ذاتها : أيمكن أن تأتى الحياة بالسعادة ؟ أما جونسن فلم يؤخر الجواب ، « يا من تستمعون وأحلام الأمل تراودكم ، وتتوقعون أن تحقق الشيخوخة وعود الشباب ، وأن الغد سيعوض عن نقائص اليوم ، انتبهوا لتاريخ راسيلاس »(٣٧) .

يقول جونسن أنه كان من عادة الملوك الأحباش أن يلزموا وريث العرش وادياً طيباً خصباً حتى يأتى الوقت لاعتلائه العرش . وكان يزود بكل شىء : بقصر ، وطعام طيب ، وحيوانات مدلله ، ورفاق أذكياء . ولكن راسيلاس يزهد فى هذه المباهج حين يبلغ السادسة والعشرين . فهو لايفتقد الحرية فحسب بل الكفاح أيضاً . « سأكون سعيداً لو كان أمامى هدف أسعى نحوه » . فيطيل الفكر فى كيفية الهروب من هذا الوادى المطمئن ليرى كيف يسعى غيره من الرجال إلى السعادة وكيف يجدونها .

ويقترح ميكانيكى حاذق أن يبنى آلة طائرة تحلق بهما فوق الجبال المحيطة إلى الحرية . ويشرح فكرته هكذا :

« ان الذى يستطيع السباحة يجب ألا ييأس من إمكان الطيران ، فالسباحة طيران فى سائل أكثف ، والطيران سباحة فى عنصر أخف . وما علينا إلا أن نحقق التناسب بين قوة مقاومتنا وكثافة المادة المختلفة التى نخترقها . فسيحملك الهواء بالضرورة إذا استطعت تحديد أى دفع يدفعه بأسرع مما

يستطيع الهواء أن يتراجع من الضغط .. وسيكون جهد الارتفاع عن الأرض شديداً .. ولكننا كلما ارتفعنا قلت جاذبية الأرض وثقل الجسم تدريجياً حتى نبلغ منطقة يطفو فيها الإنسان فى الهواء دون أى ميل للسقوط» .

ويشجع راسيلاس الميكانيكى ، فيوافق على صنع طائرة ، «ولكن بشرط ، وهو ألا يفشى سر هذه الصنعة ، وألا تلزمنى بأن أصنع أجنحة لسوانا» . ويسأله الأمير «ولم تضمن على غيرك بمثل هذه الفائدة الكبرى ؟» ويجيب الميكانيكى «لو كان الناس كلهم فضلاء لعلمتهم بغاية الخفة أن يطيروا . ولكن أى ضمان للأخيار إذا كان فى استطاعة الأشرار إن شاءوا أن يغزوهم من الجو ؟» ثم يصنع طائرة ، ويحاول الطيران ، فيسقط فى بحيرة ينقذه منها الأمير[٣٨] .

ويؤثر راسيلاس التحدث إلى الفيلسوف إيملاك ، الذى شهد كثيراً من الأقطار والناس . ويجدان كهفاً يفضى إلى ممر يؤدى إلى العالم الخارجى ، ويهربان من فردوسهما مع أخت الأمير نكاياه وخادمتها . ثم يزورون القاهرة وقد تزودوا بالحلى عملة عالمية ، ويشاركون فى ملاهيها ثم يملونها ، ويستمعون إلى فيلسوف رواقى يتحدث عن قهر الشهوات ، وبعد أيام يعثرون عليه وقد برح به الحزن على موت ابنته . وإذ كانوا قد قرءوا الشعر الرعوى فقد افترضوا أن رعاة الغنم لا بد سعداء ، ولكنهم اكتشفوا أن هؤلاء الرجال «تقرحت سخطاً» و «حقداً وضغينة على من هم أعلى منهم مكانة»[٣٩] . ثم يقعون على ناسك ، فيتبينون أنه يتوق سراً إلى مباهج المدينة . ويستفسرون عن سعادة الحياة البيتية ، فيجدون كل بيت قد خيم عليه ظلام الشقاق و «الصدام القاسى بين الرغبات المتعارضة»[٤٠] . ويرتادون الأهرام ويحكمون عليها بأنها قمة الحماقة . ويسمعون عن الحياة السعيدة التى يحياها الدارسون والعلماء ، فيلتقون بفلكى مشهور ، يخبرهم أن «الأمانة بغير المعرفة ضعيفة عديمة الجدوى ، والمعرفة بغير الأمانة خطيرة رهيبة»[٤١] ، ولكن الفلكى يجن . وينتهون إلى أنه ما من طريق من طرق الحياة على الأرض يفضى إلى السعادة ، ثم يعزيهم إيملاك بحديث عن خلود النفس ، ويعتزمون

العودة إلى الحبشة والرضى بتقلبات الحياة فى هدوء تحدوهم الثقة فى قيامة سعيدة .

وهى قصة قديمة تجسدت فى صورة من أبدع صورها . ويدهشنا ذلك التدفق الجميل والوضوح الذى يتميز به الأسلوب ، الذى بعد كل البعد عن الألفاظ الثقيلة التى نجدها فى مقالات جونسن بل حتى فى حديثه . وبدا مستحيلا أن يكون المعجمى المتفقه هو كاتب هذه القصة البسيطة ، وأنه مما لايصدق أن يكون قد كتب هذه الصفحات التى بلغت ١٤١ فى سبعة أيام .

وكان أثناء ذلك قد انتقل من جف سكوير إلى ستيبل إن (٢٣ مارس ١٧٥٩) ؛ وستراه بعد قليل وقد انتقل إلى جرييز إن ، ثم إلى الأنر تمبل لين . والراجح أن هذه التنقلات كان دافعها الاقتصاد فى النفقة . ولكن فى يوليو ١٧٦٢ رفع جونسن فجأة إلى حالة من الثراء النسبى بفضل معاش سنوى قدره ٣٠٠ جنيه نفحه به جورج الثالث بناء على نصيحة اللورد بيوت . أما السبب فى أن هذه المنحة كانت من نصيب رجل كان قد عارض الأسرة الهانوفريه فى إصرر ، وسخر من الإسكتلنديين فى كل مناسبة ، ووصف المعاش بأنه « أجر يدفع لأجير للدولة نظير خيانته لوطنه » ، — هذا السبب دار حوله الكثير من قصص الأسرار . فاتهمه أعداؤه بأنه يؤثر المال على المبدأ ، وزعموا أن بيوت كان يبحث عن قلم جبار يرد على ولكس ، وتشرشل ، وغيرهما ممن كانوا يشوهون سمعته بكتاباتهم . وزعم جونسن أنه قبل المعاش على أساس صريح أكده بيوت مرتين ، هو ألا يطلب إليه أن يؤيد الحكومة بقلمه[٤٢] . وقد أسر إلى بوزويل بأن « لذة لعن بيت هانوفر ، وشرب نخب الملك جيمس ، ترجحها المئات الثلاث من الجنيهات فى العام رجحاناً كبيراً »[٤٣] . على أى حال فقد استحق المعاش أضعافاً مضاعفة ، لا عن الكراسات السياسية التى كتبها فى السنين اللاحقة ، بقدر استحقاقه إياه عن إثرائه الأدب الانجليزى بالقلم والحديث وبالحكمة والنكتة المطهرة .



openkanan.com

وكان له من الأصدقاء عدد يكفى لتشتيت الأعداء . يقول « ان الصداقة هى الشراب المنعش الذى يعين المرء على ابتلاع جرعة الحياة المقززة »(٤٤) . وكان فى كل محفل تقريباً من المحافل التى يختلف إليها يصبح محور الحديث ، لا لأنه شق طريقه بالقوة إليه ، بل لسبب أهم هو أنه كان أعظم شخصية متفردة فى حلقات لندن الأدبية ، وكان فى استطاعة سامعيه أن يثقوا بأنه سيقول شيئاً كلما تكلم . ورينولدز هو الذى اقترح تأليف « النادى » الذى سماه بوزويل فيما بعد « النادى الأدبى » ، وأيد جونسن الاقتراح ، وفى ١٦ أبريل ١٧٦٤ بدأت الجماعة الجديدة لقاءاتها فى أمسيات الإثنين بحانة « تيركس هد » فى شارع جرارد بحى سوهو ، أما الأعضاء الأصليون فهم رينولدز ، وجونسن ، وبيرك ، وجولدسمث ، وكرستوفر نجنت ، وتوبهام بوكلرك ، وبنيت لانجتن ، وأنتونى كامين ، والسرجون هوكنز . وأضيف إلى هؤلاء فيما بعد آخرون بتصويت الأعضاء : جبون ، وجاريك ، وشريدان ، وفوكس ، وآدم سمث ، ودكتور بيرنى . . .

ولم يظفر بوزويل بالعضوية إلا فى ١٧٧٣ ، وقد يكون بعض السبب أنه لم يكن يفد على لندن إلا لماما . ولم ينفق خلال السنين الإحدى والعشرين ، بين التقائه بجونسن ووفاة جونسن ، أكثر من عامين وبضعة أسابيع على قرب من معبوده . وكان فى حرارة إعجابه التى لم يخفها ، وفى علم جونسن بأن بوزويل يخطط لكتابة سيرته ، ما جعل أكبر الرجلين يغفر ما أبداه الاسكتلندى من مسلك يقرب من العبادة المتملقة . والمتكلم المجيد للكلام ، والمستمع المجيد للاستماع ، يؤلفان صاحبين سعيدين . ولم يكن جونسن شديد الاحترام لعقلية بوزويل . فحين قال « بوزى » ، كما كان يلقبه ، أن النبيذ الذى شربه أثناء منادمتهما أصابه بصداع ، قال جونسن مصححاً : لا يا سيدى ، ليس النبيذ هو الذى صدع رأسك ، بل المعنى الذى وضعته أنا فيه » . وقال بوزويل متعجباً « ماذا يا سيدى ! وهل يصدع المعنى الرأس ؟ » « نعم يا سيدى ، إذا لم يكن معتاداً عليه »(٤٥) . ( وفى « السيرة » فقرات يبدو فيها بوزويل يتكلم كلاماً معقولا عن كلام جونسن ) . وفى معرض الثناء على ملحمة بوب عن المغفلين ( الدنسياده ) لاحظ جونسن أنها خلعت على بعض المغفلين ذكراً خالداً ، ثم واصل نكتته : « لقد كانت

الغفلة يومها أمراً جديراً بالاهتمام . . آه ، ياسيدى ، لو إناك عشت فى تلك الأيام ! »[٤٦] . ولكن الدب الشائخ لم يلبث أن تعلم أن يحب شبله ، فقال له فى ١٧٦٣[٤٧] « قليل من الناس من آنس إليه أنسى إليك » ، وقال « ان بوزويل لم يغادر قط بيتاً دون أن يترك فيه رغبة فى عودته »[٤٨] . وفى ١٧٧٥ أعطى بوزويل حجرة فى مسكن جونسن لينام فيها حين يمتد بهما الحديث إلى ساعة متأخرة من الليل[٤٩] .

وفى ٣١ مارس ١٧٧٢ كتب فى يوميته : « إنى مصمم على كتابة سيرة المستر جونسن . وأنا لم أخبره بنيتى بعد ، ولا أدرى إن كان من واجبى أن أفعل » . ولكن جونسن علم بالأمر فى ابريل ١٧٧٣ إن لم يكن قبله[٥٠] . وعلم غيره به . وغاظهم طريقة بوزويل فى إثارة مسائل جدلية بقصد واضح هو جر رجل الأديب العجوز والظفر بدرة جديدة للسيرة ، وافتخر الاسكتلندى الفضولى بأن « النبع كان أحياناً يسد حتى أفتح صنبوره »[٥١] ولعل جونسن الذى نعرفه ونستطيبه ماكان ليتجلى قط لولا أن حفزته إثارة بوزويل المفرطة ومطاردته التى لايعتريها الكلل . وشتان بين جونسن هذا وجونسن الذى نجده فى « السيرة » التى ألفها هوكنز ، أو حتى فى « النوادر » الرشيقة التى كتبتها مسز ثريل ! .

ويناير ١٧٦٥ هو تاريخ بداية صلة جونسن بأسرة ثريل ، وهى صلة لعبت فى حياته دوراً أكبر من صداقته لبوزويل . وكان هنرى ثريل صانع جعة ، وإبناً لصانع جعة ، أصاب حظاً طيباً من التعليم وجاب الأقطار ، ولم يكن يؤمن أن يشرف وضعه الاجتماعى بانتخابه عضواً فى البرلمان . وفى ١٧٦٣ تزوج هستر لنسن سولزبرى ، وكانت فتاة ولزية لا يتجاوز طولها خمسة أقدام ولكنها مرحة ذكية . واستغرق هنرى فى عمله وهو يكبرها باثنى عشر عاماً ، ولكنه بذل لها من الاهتمام ما كفى لجعلها تحبل كل سنة بين ١٧٦٤ و ١٧٧٨ ، ولنقل عدوى مرضه السرى إليها[٥٢] . وولدت له اثنى عشر طفلا مات منهم ثمانية فى طفولتهم وراحت تسرى عن نفسها بالأدب ، فلما جاء زوجها إلى البيت بصموئيل جونسن الذائع الصيت ، سخرت كل فنون الأنثى وملاطفاتها لتربطه بالأسرة . وسرعان ما اعتاد أن

يتعشى مع آل ثريل كل خميس فى منزلهما بسوثوارك ، وكان منذ ١٧٦٦ ينفق معهما الصيف عادة فى فلتهم الريفية فى ستريتهام بمقاطعة صرى . وجعلت السيدة ثريل من بيتها صالوناً كان قطبه جونسن ، ورواده رينولدز وجولدسمث وجاريك وبيرك ، وآل بيرنى ، وأخيراً — بوزويل — مدفوعاً بالغيرة لأنه علم أن السيدة ثريل تجمع البيانات عن نظرات بطلها وعاداته وألفاظه . وهكذا قدر لـ « السيرة » أن يكون لها منافس .

## ٤ — الدب الأكبر

كيف كان « الدب الأكبر » يبدو ؟ كتب بوزويل عقب لقائهما الأول (١٧٦٣) يقول : « ان مستر جونسن رجل رهيب المنظر للغاية . . . رجل كبير الحجم جداً ، يشكو التهاب العينين ، والشلل الارتجافى ( تقلص عصبى لا إرادى ) والداء الخنازيرى وهو رث الهندام جداً ، ويتحدث بصوت غاية فى الخشونة »(٥٣) . ووصفته السيدة ثريل حين تقدم به العمر فقالت : « كانت قامته فارعة إلى حد ملحوظ ، وأطرافه غاية فى الكبر . . أما قسماته فمحددة تحديداً قوياً ، ووجهه مضرس جداً . وكان فى إبصاره قصر ، وفيه غير ذلك قصور ، ومع ذلك كانت عيناه شديدتى الجموح ، والنفوذ ، والضراوة أحياناً ، حتى أن الخوف منه كان فى اعتقادى أول انفعال يبدو فى عيون ناظريه »(٥٤) .

وكان جونسن يأسف على الساعات التى يجلس فيها إلى مصور يصوره باعتبارها « وقتاً مضيعاً » ، ومع ذلك فعل هذا عشر مرات حين رسمه رينولدز ، ومرة حين صنع نولكنز له تمثالا نصفياً . وفى ١٧٥٦ أبرزه السر جوشوا بديناً ثقيل الحركة (٥٥) ، وفى ١٧٧٠ رسم له صورة جانبية وجعله يبدو شبيهاً بجولدسمث (٥٦) . وفى ١٧٧٢ أسلمته أشهر صوره للأجيال اللاحقة رجلا ضخماً صعب المراس ، له شعر مستعار هائل ، ووجه ممتلىء كبير ، وحاجبان هابطان فوق عينين حائرتين ، وأنف ضخم وشفتان غليظتان ، وذقن ملغد . . وكان شعره المستعار تزيحه غير مرة الحركات التشنجية التى تند عن رأسه وكتفيه ويديه (٥٧) . وكان مهمل الهندام .

وقد قال لبوزويل « إن الملابس الجميلة لا قيمة لها إلا من حيث سدها النقص فى غيرها من وسائل جلب الاحترام للابسها »[٥٨] . ولم يكن يعبأ كثيراً بالنظافة الشخصية إلى أن نزل ضيفاً على آل ثريل .

وكان يأكل بشراهة ليملأ فراغ جوفه الكبير ، وربما لأنه لم ينس سنوات الجوع . قال بوزويل :

« لم أعرف قط رجلا أكثر منه تلذذاً بالأكل الطيب . كان إذا جلس إلى المائدة استغرقته مهمة اللحظة استغراقاً تاماً ، فبدت نظراته وكأنها سمرت على طبقه . وما كان ليفوه بكلمة واحدة ، ولا ليبدى أقل انتباه لما يقوله غيره — إلا أن يكون فى صحبة قوم رفيعى المقام جداً — حتى يشبع شهيته التى كانت شديدة الضراوة حتى . . . لتنتفخ لها عروق جبينه عادة ويتفصد عرقاً غزيراً ملحوظاً للناظرين [٥٩] .

وكان يأكل السمك بأصابعه ، « لأننى أشكو قصر النظر ، وأخشى شوك السمك »[٦٠] . ولم يكن يطيق منظر الخضر . وكان فى الأيام التى تتعاظم فيها شهيته للطعام « يحب أن ينعش نفسه بالخمر ، ولكنه لم يسكر قط غير مرة واحدة »[٦١] . وحين نددت المسز وليمز بالسكر قائلة « إنى لأعجب أى لذة يمكن أن يحس بها الرجال فى أن يجعلوا من أنفسهم حيوانات ؟» أجاب على الفور « إنى لأعجب يا سيدتى أنك لا تملكين من نفاذ البصيرة ما ترين به الإغراء القوى لهذا الإفراط فى الشراب ، لأن من يجعل نفسه حيواناً يتخلص من الألم الذى يصيبه من كونه إنساناً »[٦٢] . ولكن السكر فى رأيه « لا يعين على الارتقاء بالحديث مع الناس ، فهو يغير العقل حتى ليسر المخمور بأى حديث»[٦٣] . ثم تجنب كل ألوان المسكر فى أخريات حياته ، وقنع بالكاكاو ، وعصير الليمون ، وأقداح الشاى التى لا حصر لها . ولم يدخن قط ، « إنه لأمر رهيب أن ننفث الدخان من أفواهنا فى أفواه غيرنا من الناس وفى عيونهم وأنوفهم ، وأن يفعل الناس بنا هذا الشىء ذاته » . وعلل عادة التدخين بأنها « تحفظ العقل من الخواء التام »[٦٤] .

وكانت عاداته الفظة من جهة أثراً خلفته الأيام والليالى التى قضاها فى قاع المجتمع ، ومن جهة نتيجة للمثيرات البدنية والمخاوف العقلية . لقد كان

قوياً ، فخوراً بقوته ، استطاع أن يصرع كتبياً دون أن يخشى رده للثأر لنفسه ، وأن ينتزع من مكانه رجلا جرؤ على احتلال كرسى أخلاه جونسن مؤقتاً ويطرحه جانباً ؛ وقد امتطى جواداً وصاحب ثريل فى رحلة صيد للثعالب عبر الريف امتدت خمسين ميلا . ولكنه وجد مشقة فى حمل بدنه الثقيل . « حين كان يسير فى الشوارع ، كان يبدو المدوران رأسه المتصل وما رافقه من حركة بدنه كأنه يشق طريقه بتلك الحركة مستقلا عن قدميه »(٦٥) . فإذا ركب « لم يملك زمام جواده ولا توجيهه حيث يشاء ، بل كان يحمل وكأنه فى بللون »(٦٦) .

وبعد ١٧٧٦ كان يعانى من الربو والنقرس والاستسقاء . ولا بد أن هذه الأمراض وغيرها من أوصاب البدن زادت مزاجه السوداوى حدة ، وكان أحيانا يصيبه بغم شديد حتى « أننى لأرضى بأن يبتر منى عضو استرد بعدها مرحى »(٦٧) ولم يكن ليؤمن بأن بين الناس إنساناً سعيداً ، ومرة قال عن رجل زعم انه سعيد « هذا كله هراء ، ان الكلب يعرف أنه تعس طوال الوقت »(٦٨) .

وبعد أن أخبره طبيب بأن الوهم المرضى يفضى أحياناً إلى الجنون ، خاف أن يلتاث عقله يوماً ما (٦٩) . وقد أجرى هذه العبارة على لسان إملاك فى قصة « راسيلاس » ، « أن أبشع الشكوك وأكثرها إزعاجاً فى حالتنا الراهنة هى الشك فى احتفاظنا بسلامة عقولنا »(٧٠) .

وإذا كان يشكو قصراً فى بصره فإنه لم يجد اللذة تذكر فى تأمل جمال النساء أو الطبيعة أو الفن (٧١) . وكان رأيه فى النحت أن الناس غالوا فى تقديره ، « ان قيمة النحت ترجع إلى صعوبته . فأنت لاتقدر أبدع رأس نحت فوق جزره .»(٧٢) . وقد حاول أن يتعلم العزف « ولكننى لم أفلح قط فى اخراج نغمة » . وسأل مرة « قل لى بربك ياسيدى من يكون باخ هذا ؟ أزمار هو؟ »(٧٣) — مشيراً إلى يوهان كرستيان باخ ، وكان يومها ( ١٧٧١ ) أشهر عازف على البيان فى انجلتره . وأحس أن الموسيقى تفسدها الحركات البهلوانية على الأصابع . ومرة سمع بأن عازف كمان نال ثناء الناس لأن

القطع التى عزفها عسيرة جداً ، فقال مندهشاً « عسيرة — ليتها كانت مستحيلة »(٧٤) .

ولابد أن رجلا أوتى هذه القوة والعافية لقى عنتاً فى التعامل مع أحلام الجنس التى تهيج حتى العقل السوى . وحين حضر حفلة الافتتاح لتمثيلية « أيرينى » وقاده جاريك إلى « الحجرة الخضراء » التى ينتظر فيها الممثلون بين المشهد والمشهد ، رفض اقتراحاً بأن يكرر هذه الزيارة . « لا يا ديفد ، لن أعود للمكان أبدا . لأن ثياب ممثلاتك البيضاء وجواربهن الحريرية تثير أعضائى التناسلية »(٧٥) . وقد أدهش بوزويل أن يسمعه يقول يوماً وهو فى جزائر الهبريد « كثيراً ما خطر لى أنه لو كنت أقتنى حريماً . . . »(٧٦) .

ويمكن القول عموماً أن نقائصه كانت أظهر من فضائله ، التى كانت لاتقل عن النقائص وجوداً حقيقياً . وفى وسعنا أن نعكس ملاحظة هوراس ولبول الذى قال « مع أنه كان طيب الطبع فى أعماقه فإنه كان سىء الطبع جداً فى قمته »(٧٧) . وقد أعرب جولدسمث عن هذا المعنى ذاته بعبارات ألطف : « إن فى سلوك جونسن خشونة ، ولكن ليس هناك إنسان حى له قلب أرق . فليس فيه من الدب إلا جلده »(٧٨). فهذا الرجل الذى كان رث الهندام ، بايداً ، مؤمناً بالخرافة ، فظاً ، مستبد الرأى ، متكبراً ، كان أيضاً رحيماً ، عطوفاً ، كريماً ، يبادر بطلب الصفح وبالنسيان . وقد قدرت مسز ثريل أن جونسن كان يبذل ٢٠٠ جنيه من معاشه البالغ ٣٠٠ جنيه (٧٩) ، وأضافت : « كان يرعى مجاميع بأسرها من الناس فى بيته . . . وكان وهو ينفق نصف الأسبوع فى بيتنا عادة ، يحتفظ بأسرته الكبيرة العدد فى فليت ستريت مخصصاً لأفرادها نفقة ثابتة ، ولكنه يعود إليهم كل سبت ليقدم لهم ثلاث وجبات طيبة بالإضافة إلى صحبته ، قبل أن يعود إلينا فى ليلة الإثنين — باذلا لهم ذات الحفاوة والمجاملة التى كان يبذلها لمثلهم من أفراد المجتمع الراقى أو ربما أكثر منها »(٨٠) .

وكان يكتب للغير المقدمات والإهداءات والعظات وحتى الآراء القانونية ، مجاناً فى حالات كثيرة . وقد جاهد بلسانه وقلمه لينقذ الدكتور وليم دد من حبل المشنقة . وحين رأى مومساً راقدة فى الطريق ( وكان فى

عامه الخامس والسبعين) وضعها على ظهره ، وحملها إلى مسكنه ، واعتنى بها حتى استعادت صحتها ، ثم « حاول أن يعينها على كسب رزق حلال »[٨١]. وقد قال جورج ستيفنز الذى تعاون معه فى التعليق على مسرحيات شكسبير « لو أن الحسنات الكثيرة التى أخفاها عمداً ، والأفعال الإنسانية التى أسداها سراً ، أعلن عنها بذات التفصيل الدقيق (كزلاته) ، لتاهت عيوبه فى وهج فضائله فلم يبق أمام الناس غير الفضائل »[٨٢] .

ولم يؤلف خلال الأعوام التسعة عشر الباقية من عمره سوى كتاب هام واحد هو « سيرة الشعراء » ، وفيما عدا ذلك أحل لسانه محل قلمه . وقد وصف نفسه بأنه « رجل يحب أن يلف ساقيه ويطلق حديثه »[٨٣] . ولو غضضنا النظر عن تلذذه بالطعام ، لوجدناه أسعد ما يكون حياة حين يتحدث إلى جماعة ذكية . وكان قد اجتمع له بالملاحظة والقراءة ذخيرة خارقة وتنوع مدهش من المعرفة بشئون البشر ، وقد حمل الكثير من هذه المعرفة فى مخزن ذاكرته وكان يرحب بفرصة التخفف منها . ومع ذلك فقلما كان البادىء بأى نقاش جاد ، وما كان يفصح عن رأيه إلا حين يثير بعضهم موضوعاً أو تحدياً . وكان يجد دائماً إغراء بأن يعارض رأى غيره ، وكان على استعداد للدفاع عن أى قضية أو عكسها ، يلتذ الجدل لعلمه بأنه لايقهر ، ويصمم على أن تكون حجته هى الغالبة حتى ولو ماتت الحقيقة تحت ضرباته . وكان على علم بأن هذا لم يكن أرقى ضروب الحديث ، ولكنه كان واثقاً أنه ألذها . وكان إذا حمى وطيس المعركة واشتد استمتاعه بها لايعرف المجاملة . يقول بوزويل « لم يكن يرحم أحداً منا . مرة قال لأحد مجادليه : لقد عثرت لك على حجة ، ولكنى لست ملزماً بالعثور لك على فهم »[٨٥] . يقول جولدسمث « لاسبيل للجدل مع جونسن ، فهو ان أخطأتك رصاص طبنجته صرعك بمقبضها »[٨٦] ويروى بوزويل هذه القصة عنه ، « حين ألممت بالدكتور جونسن صبيحة الغد وجدته راضياً كل الرضى عن قدراته الكلامية فى البارحة . فقد قال : حسناً ، لقد استمتعنا بحديث طيب» . بوزويل « أجل ياسيدى ، لقد قذفت بالكثيرين وأثخنتهم بالجراح»[٨٧] . وقد وصفه توماس شريدان بأنه « بلطجى»[٨٨] . وجبون بأنه متعصب تعصباً

أعمى[٨٩] . وقال عنه اللورد مونبودو أنه « أشر وأخبث رجل عرفته فى حياتى ، لا يثنى على كاتب أو كتاب أثنى عليه غيره ( ولكنه أثنى على قصة فانى بيرنى « افلينا » ) . . . ولا طاقة له على سماع أى شخص غيره يشد انتباه الجماعة ، ولو لوقت قصير جداً »[٩٠] أما هوراس ولبول ، الآمن فى وظائفه الشرفية ، فكان يرتعد حين يخطر جونسن بباله ، وقد أجمل وصفه على النحو الذى يراه ابن رئيس وزراء من حزب الأحرار .

«كان جونسن بما ملك من سقط الثقافة وبعض الجوانب القوية شخصية كريهة خسيسة . فهو من حيث المبدأ استيوارتى ، مزهو ، مكتف بذاته ، متغطرس . . . ولقد ابتذل قامه وسخره للحزبية حتى فى معجمه ، ثم ناقض تعريفاته بعد ذلك لقاء معاش يتلقاه . وكانت عاداته قذرة متعالية وحشية ، وأسلوبه خبيثاً طناناً إلى حد مضحك ، وباختصار كان فيه رغم كل حذلقته وتنطعه تلك التفاهة الهائلة التى تجدها فى المعلم الربنى . . فليت شعرى ماذا يحسبنا الخلف حين يقرءون أى صنم عبدنا ؟ »[٩١] .

وخير الحديث من الوجهة المثالية بالطبع هو ذلك الذى يجرى فى جماعة صغيرة مستأنية كل أفرادها مثقفون مهذبون ، أو كما أعرب جونسن فى فاصل لطيف : « أن خير الحديث ما خلا من المنافسة أو الغرور ، وكان تبادلا هادئاً مطمئناً للعواطف»[٩٢] ، ولكن متى كانت له هذه التجربة ؟ لقد قال لبوزويل وعيناه على الأرجح تومضان : «إن معاملة خصمك بالاحترام معناها إعطاؤه ميزة لا حق له فيها »[٩٣] ، ونحن الذين لم نحس قط ضرباته نغتفر له كل تلك اللطمات والإهانات والأحكام المتحيفة لأن ذكاءه وفكاهته ونظره الثاقب ، وإيثاره الحقائق الواقعية على الادعاءات الكاذبة ، والصراحة على الرياء ، وقدرته على حشد الحكمة فى عبارة ، — كل هذا يجعله شخصية من أشد الشخصيات سيطرة فى التاريخ الانجليزى .

## ٥ — الفكر المحافظ

أترانا نستمع إليه يتكلم ؟ لقد كان لديه الطريف الذى يقوله فى كل شىء تقريباً تحت الشمس . لقد رأى الحياة خطباً لا رغبة لإنسان فى تكراره ،

أكثر الناس « يطيقونه بصبر نافد ويرحلون عنه كارهين »[٩٤] . وحين سألته الليدى مكليود « أليس هناك إنسان صالح بطبعه ؟ » أجاب « بلى يا سيدتى ، ليس أكثر صلاحاً من الذئب »[٩٥] . « واضح أن الناس . . . فاسدون فساداً لا تكفى معه كل قوانين السماء والأرض لكفهم عن الجرائم . . .[٩٦] والناس يكرهون بأقوى مما يحبون ، وإذا كنت قد قلت شيئاً لأوجع إنساناً مرة ، فلن أفسد هذا بقول أشياء كثيرة لأسرة »[٩٧] .

وقلما كان يناقش الاقتصاد . وقد ندد باستغلال شعوب المستعمرات[٩٨] ، وأدان الرق بشدة ؛ ومرة أذهل بعض الأساتذة باقتراحه شرب نخب فى صحة « ثورة الزنوج فى جزر الهند الغربية »[٩٩] . ولكنه ذهب إلى أن « زيادة أجور العمال اليوميين خطأ ، لأنها لاتعينهم على عيش أفضل ، إنما ( فى رأى « المتبطل » ) تجعلهم أكثر كسلا ، والكسل مفسدة للطبيعة البشرية »[١٠٠] . وكان كبلاكستون يؤمن بقداسة حقوق الملكية ، وكنقيضه فولتير يدافع عن الترف لأنه يتيح عملا للفقراء بدلا من إفسادهم بالصدقات[١٠١] . وقد سبق آدم سمث فى الدعوة للمشروعات الحرة[١٠٢] ؛ ولكن تكاثر التجار كان يثيره . « أخشى ألا تتيح زيادة التجارة ، والصراع المتصل على الثروة الذى تثيره التجارة ، أى أمل فى نهاية نتوقعها سريعاً للخداع والغش . . . ان العنف يخلى مكانه للمكر »[١٠٣] . ولم يتظاهر قط باحتقار المال بعد أن عانى من الفاقة ، وقال « إن أحداً من الناس لم يكتب قط إلا طلباً للمال ، اللهم إلا إذا كان أحمق »[١٠٤] — وفى هذا الرأى بخس لغرور الإنسان .

وقد أحس أننا نغالى فى أهمية السياسة ( ولنذكر الأبيات التى أضافها لقصيدة جولدسمث « الرحالة » ( لست أبالى مثقال ذرة أن أعيش فى ظل شكل دون آخر من أشكال الحكومة »[١٠٥] ؛ وإذن « فمعظم خطط الإصلاح السياسى أشياء مضحكة جداً »[١٠٦] ؛ ومع ذلك سخط على « كلاب الهويجز » ، واقتضى رضاه عن الهانوفريين منحه معاشاً . ووصف الوطنية بأنها « آخر ملاذ يحتمى به الأوغاد »[١٠٧] . ولكنه دافع بحرارة الوطنيين الغيورين عن حق بريطانيا فى جزر فوكلند (١٧٧١) . وكان يحس باحتقار للاسكتلنديين والفرنسيين يكاد يكون شوفينيا .

وكان السباق ، فى ١٧٦٣ ، فى الدفاع عن النزعة المحافظة قبل بيرك « أن التجربة البشرية ، التى تناقض النظرية باستمرار ، هى المحك الأعظم للحقيقة . وإن نظاماً قام على كشوف عدد كبير من العقول لهو دائماً أقوى مما يتمخض عنه تفكير عقل واحد »(١٠٨) . وبعد عام ١٧٦٢ كان قانعاً تماماً بالوضع الراهن ، وأثنى على الحكومة البريطانية لأنها « أدنى إلى الكمال من أى شىء عرفناه بالتجربة أو وعاه التاريخ »(١٠٩) . وأعجب بالارستقراطية والفوارق والامتيازات الطبقية باعتبارها ضرورية للنظام الاجتماعى والتشريع الحصيف(١١٠) . « إننى صديق للطاعة ، فهى جد مفضية إلى سعادة المجتمع . . . والخضوع واجب الجهال ، والقناعة فضيلة الفقراء »(١١١) . وأحزنه كما يحزن كل جيل :

« ان الطاعة إنهارت بشكل مؤسف فى هذا العصر . فما من رجل له اليوم السلطة التى كانت لأبيه — إلا السجان . وما من سيد يملكها على خدمه ؛ وقد تقلصت فى كلياتنا ، أجل ، بل فى مدارسنا الثانوية . ولهذا أسباب كثيرة ، أهمها فى رأيى تكاثر المال تكاثراً شديداً . . فالذهب والفضة يدمران الطاعة الإقطاعية . ولكن هناك إلى هذا تراخ عام فى الإحترام . فلم يعد ابن يعتمد على أبيه الآن كما كانت الحال فيما مضى . . . وأملى أن يتمخض هذا التراخى الشديد عن إحكام للزمام كما تتمخض الفوضى عن الطغيان »(١١٢) .

وحكم جونسن من واقع تأمله لجماهير لندن بأن الديمقراطية ستكون وبالا . وسخر من الحرية والمساواة باعتبارهما شعارات غير عملية(١١٣) . « ليس صحيحاً على الإطلاق أن الناس متساوون بالطبيعة ، فما من شخصين يجتمعان معاً نصف ساعة إلا اكتسب أحدهما تفوقاً واضحاً على الآخر »(١١٤) . وفى ١٧٧٠ كتب كراسة عنوانها « الإنذار الكاذب » ، أدان فيها الراديكالية وبرر إقصاء ولكس عن البرلمان .

وفى كراسة أخرى عنوانها « الوطنى » ( ١٧٧٤ ) جدد جونسن هجومه على ولكس ، وانتقل إلى ما وصفه بوزويل بأنه « محاولة لفرض التسليم غير المشروط على إخواننا الرعايا فى أمريكا »(١١٥) . وكان جونسن قد

تحدث فى كتابات سابقة عن المستعمرات الأمريكية بحياد عرضى ، فرأى أنها « اختطت دون استناد إلى مبادىء سياسية عادلة جداً » ، وذلك إلى حد كبير راجع إلى أن دولا أوربية أخرى كانت تختطف المستعمرات بأفراط[١١٦] ، ولأن انجلتره أرادت حماية نفسها من بلدين — فرنسا وأسبانيا — أصبحا قوتين إلى حد يهدد بالخطر بسبب التهامهما لأمريكا . وكان قد امتدح المستعمرين الفرنسيين على معاملتهم الهنود معاملة رحيمة وعلى التزاوج منهم ، وأدان المستعمرين البريطانيين اغتشهم للهنود وظلمهم للزنوج[١١٧] . ولكن حين راح المستعمرون يتحدثون عن الحرية ، والعدالة ، والحقوق الطبيعية ، احتقر جونسن دعاواهم لأنها رياء خداع ، وتساءل «ما بالنا نسمع أعلى نباح عن الحرية بين جلابى العبيد الزنوج ؟ »[١١٨] . ثم بسط الرأى المعارض لتحرير المستعمرات فى كراسة قوية عنوانها « فرض الضرائب ليس طغياناً » (١٧٧٥) ، والظاهر أنها كتبت بناء على طلب الوزارة ، لأن جونسن اشتكى ( فيما يروى بوزويل ) من أن معاشه منح له « بوصفه شخصية أدبية » ، وها هو الآن « تطلب إليه الحكومة أن يكتب كراسات سياسية »[١١٩] .

وكانت حجة جونسن أن المستعمرين بقبولهم حماية بريطانيا العظمى قد أقروا ضمناً بحق الحكومة البريطانية فى فرض الضرائب عليهم . وفرض الضرائب ، إذا توخينا الإنصاف ، لا يقتضى تمثيل الأشخاص المفروضة عليهم الضرائب تمثيلا مباشراً فى الحكومة ؛ ونصف سكان انجلتره لا ممثلون لهم فى البرلمان ، ومع ذلك قبلوا فرض الضرائب عليهم مقابلا عادلا لما توفره الحكومة من نظام اجتماعى وحماية قانونية . وقد ذهب هوكنز — وهو الذى أمد جونسن بحججه[١٢٠] — إلى أن هذه الكراسة « فرض الضرائب ليس طغياناً » « لم تتلق رداً قط »[١٢١] ، أما بوزويل ، الذى تذكر كورسيكا ، فقد انحاز إلى صف الأمريكيين ، وأسف على ما فى قلم جونسن من « عنف بالغ » ، وقال « لست أشك فى أن هذه الكراسة كتبت بناء على رغبة أولئك الذين كانوا يومها يتقلدون زمام الحكم ، والحق أنه اعترف لى بأن بعض هؤلاء راجعها واختصرها »[١٢٢] . وقد تنبأت فقرة حذفتها الوزارة بأن

الأمريكان « سوف يكونون بعد قرن وربع أكثر من أنداد لسكان أوربا ( الغربية ) »(١٢٣) .

وكان فى فلسفته السياسية بعض العناصر اللبرالية . وقد آثر فوكس على بت الثانى ، وأقنعه بعضهم بتناول العشاء مع ولكس ، الذى تغلب على مبادىء جونسن السياسية بإعطائه قدراً من لحم العجل اللذيذ(١٢٤) . وداعب المحافظ العجوز الثورة فى إحدى فقراته فقال :

« إذا تأملنا بالنظرة المجردة التوزيع غير المتكافىء لمباهج الحياة . . . وإذا وضح لنا أن الكثيرين تعوزهم ضروريات الطبيعة ، وأكثر منهم ما تتيحه الحياة من أسباب الراحة والدعة ، ورأينا الكسالى يعيشون فى رغد على متاعب الكادحين ، والمترفين ينعمون بأطايب لايذوقها من يوفرونها ، وإذا كان السواد الأعظم لابد مفتقر دائماً إلى ما تستمتع به القلة وتبدده دون نفع ، بدا لنا من المستحيل أن نتصور أن سلام المجتمع يمكن أن يطول أمده ، وأدنى إلى الطبيعة أن نتوقع ألا يترك إنسان طويلا وفى حوزته مباهج فائضة عن حاجته بينما يفتقر هؤلاء الكثيرون إلى الضروريات الحقيقية »(١٢٥).

على أن نزعته المحافظة كانت ترتد بكل عنفوانها حين يتكلم على الدين . فبعد أن أنفق سنة من التشكك فى شبابه(١٢٦) ، راح يؤيد عقائد الكنيسة الرسمية وامتيازاتها تأييداً متزايد الحرارة ؛ وكان أحياناً يميل نحو الكاثوليكية : فقد أعجبته فكرة المطهر ، وحين سمع أن قسيساً انجليكانياً تحول إلى كنيسة روما قال « ليباركه الله »(١٢٧) . ويقول بوزويل إنه « دافع عن ديوان التفتيش ، وذهب إلى أن العقيدة الزائفة يجب أن توقف بمجرد ظهورها ، وأن على السلطة المدنية أن تتحد مع الكنيسة فى عقاب من يجرءون على مهاجمة الدين المقرر ، وأن أمثال هؤلاء دون غيرهم هم الذين كان ديوان التفتيش يعاقبهم »(١٢٨) . وكان يكره المنشقين على الكنيسة الانجليكانيه ، ورحب بطرد المثوديين من أكسفورد(١٢٩) . وقد رفض أن يتحدث إلى سيدة هجرت الكنيسة الرسمية للتنضم إلى طائفة الكويكر(١٣٠) . ووبخ بوزويل على صداقته المعتدلة لهيوم « الملحد » . وحين أخبره آدم سمث أن هيوم يحيا حياة يضرب بها المثل ، صاح به جونسن « أنت تكذب : » ورد

عليه سمث فوراً « أنت ابن قحبة »[١٣٢] . وقد أحس جونسن أن الدين أمر لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والأخلاق ، وأن الرجاء المنعقد على خلود سعيد هو وحده الذى يستطيع حمل الإنسان على تقبل شدائد الحياة الدنيوية . وقد آمن بالملائكة والشياطين ، وذهب إلى « أننا جميعاً كتب لنا أن نسكن فى الآخرة اما فى مواطن الهول أو السعادة »[١٣٢] . ثم قبل الوجود الحقيقى للساحرات والعفاريت ، وأعتقد أن زوجته المتوفاه قد ظهرت له فى المنام[١٣٣] .

ولم يكن يهتم بالعلم ، وقد امتدح سقراط على محاولته نقل البحث من النجوم إلى الإنسان[١٣٤] . وكان يستفظع تشريح الحيوان الحى . ولم يثر الارتياد الجغرافى اهتمامه ، فاكتشاف الأراضى المجهولة لن يفضى إلا إلى الغزو واللصوصية »[١٣٥] . وذهب إلى أن الفلسفة متاهة عقلية تؤدى إما إلى الشك الدينى أو إلى الهراء الميتافيزيقى . ومن ثم فند مثالية باركلى برفس حجر ، ودافع عن حرية الإرادة بقوله لبوزويل « نحن عليمون بأن إرادتنا حرة ، وهذا يكفى لإنهاء المسألة . . . ان النظرية كلها ضد حرية الإرادة ، والتجربة كلها معها »[١٣٦] .

وقد رفض باشمئزاز فلسفته التنوير الفرنسى بأسرها . وأنكر حق العقل المفرد مهما عظم ذكاؤه فى أن ينصب نفسه حكماً على أنظمة أنشأتها شيئاً فشيئاً تجربة المحاولة والخطأ التى خاضها النوع الإنسانى حماية للنظام الاجتماعى من دوافع البشر غير الاجتماعية . وأحس أن الكنيسة الكاثوليكية مع كل مآخذها تؤدى وظيفة حيوية فى صيانة الحضارة الفرنسية ، وحكم بالغفلة والضحل على جماعة الفلاسفة الفرنسيين الذين يوهنون الركائز الدينية للناموس الأخلاق . وقد بدا له فولتير وروسو نوعين من البلهاء : ففولتير مغفل عقلى ، ورسو مغفل عاطفى ، غير أن الفرق بينهما من الضآلة بحيث « يعسر تقرير نسبة الإثم فيما بينهما »[١٣٧] . وقد وبخ بوزويل على توddه لروسو فى سويسره ، وأسف لكرم الضيافة الذى بذلته انجلتره

« إميل » ( ١٧٦٦ ) . « إن روسو ياسيدى رجل شرير جداً . وإنى لن أتردد فى أن أوقع على حكم بنفيه بأسرع مما أوقعه على أى جان أدانته

محكمة الجنايات على مدى هذه السنين الكثيرة . أجل يا سيدى ، أود لو أكره على الشغل فى المزارع الكبيرة »(١٣٨) .

على أن جونسن لم يكن محافظاً فى حياته بقدر ما كان فى آرائه . فكان يخرج فى مرح على عشرات التقاليد فى السلوك ، والحديث ، واللباس . ولم يكن متزمتاً ؛ ضحك على البيورتان ، وحبذ الرقص ؛ ولعب الورق ، والمسرح . ولكنه أدان قصة فيلدنج « توم جونسن » ، وصدمه أن يسمع أن حنه مور المحتشمة قرأتها(١٣٩) . وكان يخشى النزعة الحسية فى الأدب لأنه وجد مشقة فى كبت خياله ودوافعه الحسية . وربما كان يخيل للناس من واقع عقائده أنه لم يستمتع بالحياة . ولكن فى استطاعتنا أن نرى فى بوزويل أنه استمتع بـ « ملء الوجود البشرى » . لقد حكم على الحياة بأنها مؤلمة حقيرة ، ولكنه كمعظمنا طاولها ما استطاع ، وواجه سنيه الأخيرة فى كره غاضب .

## ٦ — الخريف

فى عام ١٧٦٥ انتقل من الأنر تمبل إلى بيت ذى طوابق ثلاثة فى رقم ٧ بجونسنز كورت بفليت ستريت ، وكان قد أطلق عليه اسم ساكن قبله . هناك وجده بوزويل بعد أن عاد من أوربا . وفى يوليو منحته جامعة دبلن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون ، فأصبح الآن لأول مرة « الدكتور جونسن » ، ولكنه لم يلحق هذا اللقب باسمه قط(١٤٠) .

وفى أكتوبر ١٧٦٥ أصدر ، فى مجلدات ثمانية ، مسرحيات شكسبير التى تحمل تحقيقاته وتعليقاته ، بعد أن انقضت ثمانية أعوام على الموعد الذى وعد به المكتتبين فيها . وقد جرؤ على بيان ما فى مسرحيات الشاعر من أخطاء وسخافات وآراء طنانة صبيانية ، ولامه لافتقاره إلى الهدف الأخلاقى ، وذهب إلى أن شكسبير « ربما لم يخلف مسرحية واحدة لو عرضت الآن على أنها من تأليف كاتب معاصر لما استمع إليها جمهور النظارة إلى نهايتها »(١٤١) . ولكنه امتدح الشاعر على تحكمه فى عنصر الحب المشوق فى الدرامات الكبرى ، وعلى جعله كبار شخوصه ناساً لا أبطالا ، ودافع فى قوة عن إهمال شكسبير لوحدتى الزمان والمكان ، ذلك الإهمال الذى أخذه

فولتير على شكسبير (١٤٢) . وقد تحدى النقاد الكثير من تعليقاته وتصويباته ، وحل محل هذه الطبعة طبعة أصدرها إدموند مالون فى ١٧٩٠ ؛ ولكن مالون إعترف بأن طبعته مبنية على طبعة جونسن ، وغالى فى تقدير مقدمة جونسن فقال إنها « ربما كانت أروع التآليف فى لغتنا » (١٤٣) .

وفى ١٧٦٧ ، بينما كان جونسن يزور قصر بكنجهام ، التقى مصادفة بجورج الثالث ، فتبادل الرجلان عبارات المجاملة . ثم أصبحت صداقته ببوزويل أثناء ذلك حميمة ، فقبل جونسن فى ١٧٧٣ دعوة الرجل المعجب ليصحبه فى رحلة إلى جزر الهبريد . وكانت مغامرة شجاعة لرجل فى الرابعة والستين . وبدأت بسفرة طويلة شاقة فى مركبة بريد من لندن إلى إدنبره . وهناك التقى بروبرتسن ، ولكنه أبى أن يقابل هيوم . . وفى ١٨ أغسطس بدأ هو وبوزويل وخادم لهما الرحلة شمالا فى مركبة أجرة على الساحل الشرقى إلى أبردين ، ومن هناك شقوا طريقهم عبر إقليم المرتفعات الوعر مخترقين بأنف إلى انفرنس ، ثم على ظهور الخيل أكثر الرحلة مروراً بآنوخ إلى جلينيلج على الساحل الغربى . وهناك استقلا قارباً إلى جزيرة سكاى ، التى جابا أرجاءها كلها تقريباً من ٢ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر . وقد كابدا مشاق كثيرة تقبلها جونسن فى شجاعة صارمة ، فنام فوق الدريس فى الأجران ، ودب عنه الهوام ، وتسلق فوق الصخور ، وركب فى وقار قلق أفراساً لا تكاد تفوقه حجماً . وفى إحدى وقفاتهما جلست سيدة من قبيلة مكد ونلد على ركبته وقبلته فقال لها « أعيدى ، ولنرى من منا يتعب قبل الآخر » (١٤٤) . وفى ٣ أكتوبر ركب كلاهما قارباً مكشوفاً مسافة أربعين ميلا إلى جزيرة كول ، ومنها إلى جزيرة مل . ثم عبرا رجوعاً إلى البر الأم فى ٢٢ أكتوبر ، ثم سافرا مخترقين أرجلشير بطريق دمبرتن وجلاسجو إلى أوخنلك ( ٢ نوفمبر ) . هناك التقى جونسن بوالد بوزويل ، الذى احتفى به احتفاء كبيراً ، وإن أسف لتحامله على الاسكتلنديين ، وخاضا فى جدل بلغ من العنف حدا رفض معه بوزويل أن يسجله . وبعدها لقب بوزويل الأب جونسن « الدب الأكبر » وهو لقب فسره الإبن فى لباقة بأنه لايعنى

الدب الأكبر بل « برجاً للعبقرية والعلم » (١٤٥) . ووصل المسافران إلى إدنبره فى ٩ نوفمبر ، بعد أن رحلا عنها بثلاثة وثمانين يوماً . فلما تذاكرا المشاق التى لقياها ، « ضحكا من قلبيهما على هذيان أولئك الحالمين السخفاء الذين حاولوا اقناعنا بما تتيحه الحالة الطبيعية من منافع خداعة ». « وغادر جونسن إدنبره فى ٢٢ نوفمبر ، فبلغ لندن فى السادس والعشرين . وفى ١٧٧٥ نشر كتاب « رحلة إلى جزر اسكتلنده الغربية » ، ولم يكن بالكتاب النابض بالحياة ، حتى إذا قورن بالوصف المهذب ، الذى أصدره بوزويل فى ١٧٨٥ بعنوان « يوميات جولة فى الهيبريد مع صموئيل جونسن » ، وذلك لأن الفلسفة أقل إمتاعاً من الترجمة ، ولكن فى بعض الفقرات (١٤٦) جمالا هادئاً يبدى لنا جونسن مرة أخرى ربا للنثر الانجليزى .

وفى ابريل ١٧٧٥ اقتنعت أكسفورد أخيراً بمنح جونسن درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى . وفى مارس ١٧٧٦ غير مسكنه لآخر مرة ، فانتقل إلى المنزل رقم ٨ ببولت كورت، مصطحباً معه أسرته المختلطة . ثم كتب إلى كبير أمناء الملك ( ١١ ابريل ١٧٧٦ ) فى حالة نفسية غريبة من المرح يطلب شقة فى قصر هامتن كورت فقال « أرجو ألا يكون الاعتكاف فى أحد بيوت جلالته تجاوزاً فى غير موضعه أو دون استحقاق لرجل شرف بالدفاع عن حكومة جلالته » (١٤٧) . ورد كبير الأمناء آسفاً لكثرة عدد الطلاب .

وبقى إنجاز أخير للأديب . ذلك أن أربعين كتبياً لندنياً اشتركوا فى اعداد طبعة متعددة الأجزاء موضوعها الشعراء الانجليز ، وطلبوا إلى جونسن أن يقدم لكل شاعر بترجمة له . وتركوا له تحديد شروطه ، فطلب مائتى جنيه . قال مالون « لو أنه طلب ألفاً أو حتى ألفا وخمسمائة من الجنيهات ، لما تردد الكتبيون فى العطاء وهم العليمون بقيمة اسمه » (١٤٨) . وكان جونسن قد فكر فى كتابه « سير قصيرة » ، وفاته أن من أصول الكتبه أن القلم الجارى ، كالمادة فى قانون نيوتن الأول ، يواصل جريانه ما لم تكرهه على تغيير تلك الحالة قوى مفروضة عليه من الخارج . ولقد كتب عن صغار الشعراء بإيجاز

محمود . أما عن ملتن ، وأديسن ، وبوب ، فقد أطلق لقلمه العنان ، وأنشأ مقالات — من ستين صفحة واثنتين وأربعين ومائة واثنتين — تعد من أروع نماذج النقد الأدبي في الانجليزية .

وقد تلون حكمه على ملتن بكراهيته للبيورتان وسياستهم وقتلهم للملك . وقرأ نثر ملتن كما قرأ شعره ، ووصفه بأنه « جمهوري قاس فظ » [١٤٩] . أما مقاله عن بوب ( الذى بلغ في الطبعة الأصلية ٣٧٣ صفحة ) فكان آخر ضربة في الدفاع عن الأسلوب الكلاسيكي في الشعر الانجليزى يضربها أعظم وريث لذلك الأسلوب في النثر الانجليزى . لقد رأى ، وهو المالك لناصية اليونانية أن ترجمة بوب للألياذة تفضل هومر . وامتدح مرثية جراى ، ولكنه رفض قصائده الغنائية لاكتظاظها في غير نظام بالأرباب الأسطوريين . وحين نشرت المجلدات العشر من « حياة الشعراء » ( ١٧٧٩ — ٨١ ) ، صدمت بعض القراء أحكام جونسن التى كانت غير تقليدية ولكنها متعالية قاطعة ، وعدم إحساسه بلطائف الشعر الرهيفة ، وميله لتقدير الشعراء أو الحط من أقدارهم تبعاً للاتجاه الأخلاقي الذى تنحو إليه قصائدهم وحياتهم . وقد صرح ولبول بأن « الدكتور جونسن لايملك ولاريب من الذوق ولا السمع ولا معيار النقد إلا ميوله المغرضة العجائزية » [١٥٠] . وسخر من « هذا الهيكل الثقيل القائم على طوالتين » ، والذى يبدو أنه قرأ القدامى دون هدف إلا سرقة الألفاظ المتعدد المقاطع [١٥١] . فلم إذن فاقت هذه « السير » في ذيوعها وشغف القراء بها أي ثمرة أخرى من ثمرات قلم جونسن ؟ ربما بسبب تلك الميول المغرضة والصراحة في الإعراب عنها . فلقد جعل النقد الأدبي قوة نابضة بالحياة ، وأوشك أن يبعث الموتى من قبورهم بضرباته القاسية .

## ٧ — الإفراج : ١٧٨١ — ٨٤

نحن نحس بالفخر بيننا وبين أنفسنا حين يمتد بنا العمر بعد موت معاصرينا ، ولكننا نعاقب بشعور الوحدة . وهكذا كان موت هنرى ثريل ( ٤ ابريل ١٧٨١ ) البداية لنهاية جونسن . وقد قام بمهمته بصفته أحد أربعة كانوا منفذين لوصية صانع الجعة . ولكن زياراته لأسرة ثريل قامت بعد ذلك .

وكانت السيدة ثريل قد بدأت قبل موت زوجها بأمد طويل تضيق بالضغوط التى تفرضها عليها حاجة جونسن للرعاية والآذان الصاغية . وكان ثريل قد أفلح فى جعل دبه الأسير يسلك سلوكاً مهذباً إلى حد معقول ، ولكن ( وهذه شكوى الأرملة ) « إذا لم يوجد من يردعه ( أى جونسن ) عن التمادى فى إبداء مكارهه أصبح عسيراً جداً أن تجد إنساناً يستطيع التحدث إليه دون العيش دائماً على شفا الشجار . . . وقد وقعت أمثال هذه الحوادث مراراً وتكراراً ، فاضطررت . . . إلى الاعتكاف فى بات ، حيث كنت أعلم أن المستر جونسن لن يتبعنى »[١٥٢] .

وزادت صحيفة المورنيج بوست الطين بلة بإعلانها أن معاهدة زواج بين جونسن والمسز ثريل « جاهزة »[١٥٣]. وكتب بوزويل نشيداً هزلياً ( برلساك ) عنوانه « نشيد بقلم جونسن إلى مسز ثريل بمناسبة زفافهما القريب المزعوم »[١٥٤] . ولكن فى ١٧٨٢ كان جونسن فى الثالثة والسبعين والمسز ثريل فى الحادية والأربعين . ولم تكن قد تزوجت ثريل بإرادتها هى ، وكثيراً ما كان يهملها ، ولم تتعلم قط أن تحبه . ومن ثم فقد طالبت الآن بحقها فى أن تحب وأن تحب ، وفى أن تجد زوجاً فى نصف عمرها الأخير . وكانت فى تلك السن التى يشتد فيها شوق المرأة لنوع من الصحبة البدنية المتفهمة . وكانت حتى قبل موت زوجها قد تعلقت بجابرييل بيوتزى الذى كان يعطى بناتها دروساً فى الموسيقى . وكان وهو الإيطالى مولداً قد اتخذ انجلترا له مقاماً فى ١٧٧٦ ، وناهز الآن الثانية والأربعين . ويوم لقيته أول مرة فى حفلة أقامها الدكتور بيرنى ، راحت تقلد لازماته تقليداً ساخراً وهو يعزف على البيان . بيد أن سلوكه الأنيق ، وطبعه اللطيف ، ومهاراته الموسيقية ، جعلت منه نقيضاً مريحاً للدكتور جونسن . وأرخت الآن العنان لغرامها بعد أن تحررت . واعترفت لبناتها الأربع الباقيات على قيد الحياة برغبتها فى الزواج . فهالهن النبأ ، ذلك أن هذا الزواج الثانى سيؤثر فى مستقبلهن المالى ، والزواج من موسيقى — وأسوأ من ذلك كاثوليكى رومانى — سينال من مكانتهن فى المجتمع . لذلك توسلن إلى أمهن أن تتروى فى الأمر ، فحاولت ولكنها فشلت . وسلك بيوتزى مسلك الرجل المهذب ، فرحل إلى إيطاليا

( ابريل ١٧٨٣ ) وغاب قرابة عام . فلما عاد ( مارس ١٧٨٤ ) ووجد أن المسز ثريل مازالت تواقة للزواج منه استسلم للأمر . ورفض البنات الموافقة ، وانتقلن إلى برايتن .

وفى ٣٠ يونيو أرسلت مسز ثريل إلى جونسن إعلاناً ينبئه بأنها وبيوتزى قررا الزواج . فأرسل إليها هذا الرد ( ٢ يوليو ١٧٨٤ ) .

سيدتى :

لو أننى أصبت فى تفسير رسالتك لقلت إنك تتزوجين زواجاً شائناً ، فإذا كان لم يعقد بعد ، فدعينا نقلب الأمر معاً مرة أخرى . ولو كنت قد تخليت عن بناتك وعن دينك ، فليغفر الله لك شرك ؛ ولو كنت قد خسرت سمعتك ووطنك ، فأرجو ألا تأتى حماقتك مزيداً من الشر . وإذا كنت لم تتخذى بعد آخر خطوة ، فإننى — أنا الذى أحببتك ، وقدرتك ، واحترمتك ، وخدمتك ، أنا الذى طالما رأيتك الأولى بين جنس النساء — أتوسل إليك أن أراك مرة أخرى قبل أن يصبح مصيرك لا رجعة فيه .

لقد كنت ، ذات مرة يا سيدتى ، المخلص لك جداً

صموئيل جونسن(١٥٥)

وساءت المسز ثريل كلمة « شائن » لأنها رأتها وصمة لخطبها ، فردت على جونسن فى ٤ يوليو تقول : « لننكف عن التحادث حتى تغير رأيك فى مستر بيوتزى » ثم تزوجت بيوتزى فى ٢٣ يوليو . ووافقت لندن كلها جونسن على إدانتها . وفى ١١ نوفمبر قال جونسن لفانى بيرنى ، « إننى لا أتحدث عنها أبداً ، ولا رغبة لى مطلقاً فى سماع المزيد عنها »(١٥٦) .

ولا بد أن هذه الأحداث هدت من حيوية جونسن المتهافته . فاشتد أرقه ، ولجأ إلى الأفيون ليخفف آلامه ويهدىء أعصابه . وفى ١٦ يناير ١٧٨٢ مات طبيبه روبرت ليفت . وتساءل جونسن : على من يكون الدور بعده ؟ لقد كان يرهب الموت دائماً ، ومن ثم أحال هذا الخوف وإيمانه بالجحيم سنيه الأخيرة خليطاً من وجبات العشاء الثقيلة والمخاوف اللاهوتية . وقال للدكتور وليم آدمز عميد كلية بمبروك « أخاف أن أكون واحداً من

الهالكين» . فلما سأله آدمز ماذا يعنى بكلمة « الهالكين» صاح « الذين مآلهم إلى النار والعقاب الأبدى يا سيدى »(١٥٧). ولم يملك بوزويل إلا المقارنة بين هذه الحال وبين السكينة التى كان هيوم الملحد قد دنا بها من منيته(١٥٨) .

وفى ١٧ يونيو ١٧٨٣ أصيب جونسن بنقطة خفيفة « تشوش وخلط فى رأسى أظنه دام نصف دقيقة . . وقد احتبس لسانى . ولم أشعر بألم »(١٥٩). وبعد أسبوع تماثل للشفاء تماثلا أتاح له تناول العشاء فى النادى ، وفى يوليو أذهل أخصاءه بالقيام برحلات إلى روتشستر وسلزبرى . قال لهوكنز « أى رجل أنا ، رجل قهر ثلاثة أمراض — الشلل ، والنقرس ، والربو — ويستطيع الآن الاستمتاع بحديث الأصدقاء ! »(١٦٠) ولكن فى ٦ سبتمبر ماتت مسز وليمز ، وباتت وحدته لا تطاق . فلما وجد « النادى » غير كاف — لأن العديد من أعضائه القدامى (جولدسمث ، وجاريك ، وبوكلارك) ماتوا ، ولأن بعض أعضائه الجدد كانوا كريهين فى نظره ، أنشأ (ديسمبر ١٧٨٣) ، « نادى المساء » الذى كان يعقد اجتماعاته فى مشرب للجعة بشارع اسكس . هناك كان فى وسع أى شخص مهذب ، إذا دفع ثلاثة بنسات ، أن يدخل ويستمع إليه يتحدث ثلاث ليال كل أسبوع . ودعا رينولدز للانضمام ، ولكن السر جوشوا رفض . ورأى هوكنز وغيره فى النادى الجديد « تدهوراً فى تلك القدرات التى كانت تبهج « أشخاصاً أكثر مهابة »(١٦١) .

وفى ٣ يونيو ١٧٨٤ كان فى عافية أتاحت له الرحلة مع بوزويل إلى لتشفيلد وأكسفورد . فلما عاد بوزويل إلى لندن أقنع رينولدز وأصدقاء آخرين بأن يطلبوا إلى وزير الخزانة توفير مبلغ من المال يمكن جونسن من القيام برحلة إلى إيطاليا ليسترد صحته ، وقال جونسن إنه يفضل مضاعفة معاشه . ولكن وزير الخزانة رفض . وفى ٢ يوليو رحل بوزويل إلى اسكتلنده . ولم ير جونسن بعدها قط .

ذلك أن الربو الذى كان قد تغلب عليه عاوده وزاد عليه الاستسقاء . كتب إلى بوزويل فى نوفمبر ١٧٨٤ « إن نفسى قصير جداً ، والماء يتزايد

الآن على »[١٦٢] . وتوافد عليه رينولدز ، وبيرك ، ولانجتن ، وفانى بيرنى وغيرهم ليلقوا عليه تحية وداع أخيرة . ثم كتب وصيته ، وقد خلف ٢,٠٠٠ جنيه ، أوصى منها بمبلغ ١,٥٠٠ لخادمه الزنجى[١٦٣] . وعالجه عدة أطباء ، ورفضوا تقاضى أى أجر . وتوسل إليهم أن يشقوا ساقيه شقاً أعمق ، فأبوا ، فلما انصرفوا دفع مبضعاً أو مقصاً فى عمق ربلتيه أملا فى فراغ مزيد من الماء والتخفيف من الورم المؤلم ، وانطلق بعض الماء ، ولكن انطلقت معه أيضاً عشر أوقيات من الدم . فى تلك الليلة ، ليلة ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ ، قضى نحبه . وبعد أسبوع دفن فى كنيسة وستمنستر .

لقد كان أغرب شخصية فى تاريخ الأدب ، أغرب حتى من سكارون أو بوب . ومن العسير أن نحبه لأول وهلة ، فقد ستر رقته خلف ستار من الوحشية ، ونافست خشونة عاداته لياقة كتبه . ولم ينل أحد قط مثل هذا الإعجاب الكثير ولا بذل مثل هذا الثناء الضنين . ولكنه كلما تقدم به العمر ازدادت الحكمة فى كلامه . وقد أحاط حكمته بالتفاهات ، ولكنه رفع هذه التفاهات إلى مستوى جوامع الكلم بقوة حديثه أو تلوينه . ولنا أن نشبهه بسقراط ، الذى كان يتكلم أيضاً لأقل إثارة أو استفزاز ، والذى يذكره الناس بكلامه المنطوق . وكان كلاهما أشبه بذباب الخيل المنبه ، ولكن سقراط كان يلقى أسئلة ولا يعطى جواباً ، أما جونسن فلم يلق سؤالا وقد أجاب عن كل الأسئلة . ولم يكن سقراط على يقين من شىء ، أما جونسن فكان على يقين من كل شىء . وقد ناشد كلاهما العلم أن يدع النجوم وشأنها ويدرس الإنسان . وواجه سقراط الموت مواجهة فيلسوف وبابتسامة ، أما جونسن فواجهه بارتجافات دينية تنافس أوجاعه الموهنة .

وإن تجد اليوم إنساناً يراه فى صورة الكمال . وفى وسعنا أن نعرف لم تجنبته الطبقة الاستقراطية الانجليزية وتجاهلت إمارته — خلا لانجتن وبوكلارك . ونحن ندرك أى « جون بول » كان يمكن أن يكون لو جال فى « متحف خزف » النبلاء ، أو وسط تحف قصر « ستروبرى هل » النفسية ، إنه لم يخلق للجمال ، ولكنه أدى مهمة ، هى تخويف البعض ليكفوا عن الرياء والكذب والنفاق والمبالغة فى إظهار العاطفة ، وليجعلنا ننظر إلى أنفسنا بأوهام أقل

عن طبيعة البشر أو نشوات الحرية . ولا بد إن كان هناك شيء محبب فى رجل استطاع رينولدز وبيرك وجولدسمث الاستماع إليه ألف ليلة وليلة ، شيء ساحر فى إنسان استطاع أن يوحى بكتابة سيرة عظيمة ، ويملأ صفحاتها الألف والمائتين بحياة لايبليها الزمن .

## ٨ — بوزويل فى أيامه الأخيرة

لما مات الدب الأكبر حام حوله قطيع الأدباء ليلتقطوا من جثمانه بعض قوتهم . أما بوزويل نفسه فلم يتعجل ، فقد عكف على « السيرة » سبعة أعوام ، ولكنه أصدر فى ١٧٨٥ « يومية جولة فى جزر الهبريد مع صموئيل جونسن » ، وقد طبعت ثلاث طبعات فى سنة واحدة . وكانت هستر ثريل بيوتزى قد جمعت مادة عن أحاديث جونسن وعاداته ، فصنفت الآن من هذه « الثريليات » « نوادر عن المرحوم الدكتور صموئيل جونسن ، خلال سنيه العشرين الأخيرة ( ١٧٨٦ ) . وقد عرض الكتيب صورة لضيفها أقل اشراقاً مما سجلته من قبل فى يوميتها يوماً بيوم ، ولاريب فى أن رسائل جونسن الأخيرة لها قد خلفت فيها جرحاً لايندمل .

ويلى ذلك فى الحلبة — إذا خلينا أكثر من عشرة أسماء طواها النسيان الآن — « سيرة صموئيل جونسن » التى نشرها فى خمسة مجلدات فاخرة السرجون هوكنز عام ١٧٨٧ . وكان هوكنز قد لقى من التوفيق فى عمله محامياً عاماً ما برز منحه لقب الفروسية ( ١٧٧٢ ) وحصل من الثقافة ما أتاح له تأليف كتاب جيد فى « تاريخ الموسيقى » ( ١٧٧٦ ) . وقد شارك جونسن فى تنظيم نادى « آيفى لين» ( ١٧٤٩ ) ، وكان أحد الأعضاء الأصليين فى « النادى » . ولكنه تركه عقب جدال مع بيرك فلقبه جونسن بـ « الرجل الذى لايصلح للأندية » ، ولكن جونسن ظل صديقه ، وكثيراً ما التمس مشورته ، وقد عينه واحداً من منفذى وصيته . وبعد وفاة جونسن بقليل طلب جماعة من الكتبية إلى هوكنز أن يعلق على طبعة تضم آثار الدكتور ويقدم لها بترجمة للأديب . وقد أخذ على هذه الترجمة أنها كشفت عن عيوب جونسن فى غير رحمة ، وتشكك بوزويل فى دقتها فيما بعد ، ولكن

« التهم الموجهة للترجمة لا يمكن إثباتها فى تحقيق منصف »[١٦٤]. ومعظم العيوب التى أخذها هوكنز على جونسن لاحظها غيره من معاصريه .

ثم عادت المسز بيونزى إلى المأدبه بكتاب عنوانه « رسائل متبادلة مع المغفور له صموئيل جونسن » ( ١٧٨٨ ) ، وكلاها ساحر ، لأن رسائل جونسن ( فيما خلا الأخيرة التى كتبها لسيدته الضالة ) كانت تفوق حديثه كثيراً فى إنسانيتها . وكان بوزويل خلال ذلك عاكفاً بصبر فيما بين قضاياه ومجالس خمره على تأليف سيرة عقد العزم على أن يجعلها نسيج وحدها . وكان قد بدد فى تسجيل مذكرات بأحاديث جونسن عقب لقائهما الأول ( ١٧٦٣ ) ، ثم خطط للسيرة فى تاريخ مبكر ( ١٧٧٢ ) . غير أن الحبل بهذا الجنين كان غاية فى الطول والمشقة . ذلك أنه قلما كان يدون الملاحظات من فوره ، ولم يكن يعرف الاختزال ، ولكنه اتخذ مبدأ هو أن يدون على عجل وباختصار بمجرد عودته إلى حجرته ما يذكره عما حدث أو قيل . وبدأ كتابة « سيرة صموئيل جونسن » بلندن فى ٩ يوليو ١٧٨٦ وتنقل بين أرجاء المدينة باحثاً عن المعلومات يستقيها ممن بقى على قيد الحياة من أصحاب جونسن . وأعانه إدموند مالون ، الأديب المتخصص فى شكسبير ، على فرز وتصنيف ذلك الحشد الضخم المضطرب من المذكرات ، وشد أزره ودعم شجاعته حين بدا أنه يوشك أن يستسلم للنساء والشراب بعد أن هده الفجور والحزن وموت زوجته . كتب بوزويل فى ١٧٨٩ — « لن تستطيع أن تتصور أى عناء ، وأى حيرة ، وأى غيظ تحملته فى ترتيب عدد هائل من المواد ، وفى ملء الفراغات ، وفى البحث عن أوراق مدفونة بين أشتات من الأكداس ، وكل هذا بالإضافة إلى عناء التأليف والتهذيب . وكثيراً ما فكرت فى التخلى عن هذه المهمة »[١٦٥]. وقد اقتبس من كتاب وليم ميسن « سيرة جراى ورسائله » ( ١٧٧٤ ) فكرة بث رسائل بطله فى ثنايا القصة . وقد كدس التفاصيل عمداً ، لشعوره بأنها تضيف إلى الصورة الكاملة الحية . ثم نسجت من هذه الأشتات رواية مسلسلة التواريخ وكل متكامل .

فهل كان دقيقاً ؟ هذا ما زعمه . « لقد توخيت الدقة البالغة فى التسجيل

بحيث لا بد أن تكون كل صغيرة أو تافهة صادقة »[١٦٦] . وأينما استطعنا مقارنة روايته عن كلام جونسن بغيره من الروايات بدا أنها صحيحة من حيث الوقائع ، وان لم تكن كذلك من حيث حرفيتها . والمقارنة بين كتابى بوزويل « المذكرات» و « السيرة » تدل على أنه حول تلخيصه لأحاديث جونسن إلى اقتبـاسات مباشرة ، قد يطيلها أحيـاناً ، أو يقصرها ، أو يحسنها[١٦٧] ، أو ينقيها ، مع تمديد الألفاظ الصغيرة ( الرباعية الحروف ) إلى أطوال محترمة ، وكان أحياناً يحذف الرقائع التى لاتخدم مصلحته[١٦٨] . ولم يدع أنه قال كل الحقيقة عن جونسن[١٦٩] ، ولكن حين توسلت إليه حنه مور « ان يلطف من بعض خشونة جونسن وغلظته » ، رد بأنه « ان يقلم أظافر جونسن ، أو يحيل البيرقطا ليسر أى إنسان »[١٧٠] . والواقع أنه كشف عن عيوب أستاذه كشفاً كاملا كما فعل غيره ، ولكن فى منظور أوسع خفف من بروزها . وقد حاول أن يظهر من الرجل فى صورته الكاملة ذلك القدر الذى تسمح به المحبة واللياقة . قال « إننى على يقين تام أن النهج الذى انتهجته فى كتابة السيرة ، والذى لايكتفى بسرد تاريخ لـ « مسيرة » جونسن فى الحياة ، ولمؤلفاته ، بل يضيف نظرة إلى فكره المتمثل فى رسائله وأحاديثه ، هذا المنهج هو أكمل منهج يمكن تصوره ، وسيكون أقرب إلى تصوير « حياة » جونسن من أى كتاب ظهر إلى الآن »[١٧١] .

وأخيراً خرجت السيرة من المطبعة إلى النور فى مجلدين كبيرين فى مايو ١٧٩١ ولم يقدره القراء لتوهم كنزاً فريداً فى بابه . وساء كثيرين أن يقص بوزويل أحاديثهم الخاصة ، ولم تكن دائماً مما يستحق الإعجاب ، فقد كان فى وسع الليدى ديانا بوكلارك مثلا أن تقرأ كيف نعتها جونسن بأنها عاهر ، ورأى رينولدز أين وبخه جونسن على الإفراط فى الشراب ، وعرف بيرك أن جونسن يتشكك فى نزاهته السياسية ويرى أنه لا يتورع عن التقاط مومس من عرض الطريق ، وجفلت المسز بيوتزى والمسز اليزابث مونتجيو مما قرأتا . وكتب هوراس ولبول يقول « ان الدكتور بلا جدن يقول بحق إن هذا ضرب جديد من القذف ، تستطيع به أن تسب أى إنسان

بقولك ان ميتاً ما قال كذا وكذا عن شخص حى »[١٧٢] . ووجد آخرون أن التفاصيل مسرفة ، وأن كثيراً من الرسائل تافهة ، وأن بعض الصفحات مملة . ولم تدرك انجلتره إلا شيئاً فشيئاً أن بوزويل قد أبدع رائعة من الروائع ، وأنه أسبغ على حياته شيئاً من النبل والسمو .

وكان أبوه قد مات فى ١٧٨٢ مخلفاً إياه سيداً على أوخنلك بدخل بلغ ١,٦٠٠ جنيه فى العام وقد أثبت أنه سيد عطوف رقيق الفؤاد ، ولكنه كان قد ألف حياة الحضر إلفا حال إطالته المكث فى أوخنلك . وفى ١٧٨٦ صرح له باحتراف المحاماه فى انجلتره ، وبعدها أنفق معظم وقته فى لندن . وقد صوره رينولدز فى ذلك العام — رجلا واثقاً من نفسه ، متغطرساً ، له أنف كفيل بأن يستل أى سر من صاحبه . وكانت زوجته تصحبه أحياناً إلى لندن ، ولكنها كانت تقيم فى أوخنلك عادة . وفيها ماتت عام ١٧٨٩ بالغة الحادية والخمسين ، بعد أن أضنتها العناية التى بذلتها لبوزويل وأبنائه . وقد عمر بعدها ست سنين — كانت سنى انحلال متعاظم . فلقد حاول مراراً وتكراراً أن يقهر حاجته إلى الشراب ولكنه أخفق . ومات بلندن فى ١٩ مايو ١٧٩٥ ، بالغا السادسة والخمسين ، ونقل جثمانه إلى أوخنلك ليدفن فيها . وأوزاره ماثلة اليوم فى أذهان جماهير الناس . ولكنا سننساها حين نقرأ مرة أخرى السيرة التى هى أعظم السير طرا .

هذا ولو رجعنا البصر إلى هذا القرن الثامن عشر فى الأدب الانجليزى ، لأدركنا أنه كان قبل كل شىء قرن النثر ، من أديسن ، وسويفت ، وديفو ، إلى ستيرن ، وجبون ، وجونسن ، تماماً كما كان القرن السابع عشر قرن الشعر ، من « هاملت » ودن إلى درايدن والفردوس المفقود . وكان صعود العلم والفلسفة ، وهبوط الدين والغيبيات ، وإحياء الوحدات والقيود الكلاسيكية ، كل هذا برد من حرارة الخيال والآمال ، وعطل من تدفقهما ، وكان انتصار العقل هزيمة للشعر ، فى فرنسا وفى انجلتره على حد سواء . بيد أن ما اتسم به أدب انجلتره النثرى فى القرن الثامن عشر من حيوية وتنوع عوض تعويضاً وافياً عن الشكلية الجامدة التى سادت شعره . وبفضل

رتشردسن وفيلدنج أصبحت الرواية ، التى كانت قبلهما سلسلة إبيزودية من مغامرات المتشردين والشطار ، وصفاً للحياة ونقداً لها ، ودراسة للعادات ، والأخلاق ، والشخصيات ، هى أكثر إثارة من سجلات المؤرخين ، الذين تاه منهم الناس وسط الدولة . ثم أى تأثير أدبى يمكن أن يضارع فى ذلك العصر تأثير رتشردسن على بريفو ، وروسو ، وديدرو ، وجوته ؟

وإذا كان أدب انجلتره فى القرن الثامن عشر لم يستطع مطاولة أدب القرن السابع عشر ، أو منافسة الخيال الأليزابيثى المحلق ، فإن حياة انجلتره بجملتها استعادت حركتها صعدا بعد إخفاق الشجاعة والسياسة القوميتين فى عهد عودة الملكية . فلم تشعر انجلتره منذ هزيمة الأرمادا بمثل هذا التدفق فى المغامرة والسياسة ، وقد شهدت الأعوام الواقعة بين صعود شاتام وموت ابنه الثورة الصناعية تحل انجلتره مكاناً أسبق كثيراً من منافسيها فى روح الابتكار والقوة الاقتصاديين ، وشهدت البرلمان الانجليزى يغزو القارات وهو يكبح أثناء ذلك جماح ملوكه . فالآن بنيت الامبراطورية البريطانية المترامية ، والآن تجاوبت قاعات مجلس العموم بالخطب البليغة التى لم تسمعها أوربا منذ أيام شيشرون . وبينما كانت فرنسا تنزح خزائنها لتحرر أمريكا ، وتضرب عنقها لتحقق أحلامها ، شحذت انجلتره كل مواردها من فكر وإرادة لتتطور دون ثورة ، ولتلج أبواب القرن التاسع عشر فى الاقتصاد والحكم مكللة بالنصر متبوئة أسمى مكان .

★ ★ ★